الاغريق والحب العربي

بقلم الدكتور : محمد حاج حسين

بعض المستشرقين الذين يتصدون لدراسة الحضارة الاسلامية في مختلف تياراتها يأبون الا أن يعقدوا دوما وشائج بينها وبين الوثنية أو اليهودية أو النصرانية ... يقارنون ويحللون ليخلصوا الى نتيجة تلذ لهم كثيرا عندما يزعمون ان العربي بعيد عن الابتكار .. عالة على غيره .

والحب .. وهو أسمى عاطفة أودعها الله في الانسان لم ينج من الاتهام من قبل الكثيرين من المستشرقين ، فهذا مستشرق أمريكي ألف كتابا عن الحضارة الاسلامية رأى أن الحب العربي تأثر باليونان منذ العصر الجاهلي !.. فقد أمره الاغريق بالعمق والاتساع ، وأضفوا عليه بعض المعاني في ذلك العهد المبكر من التاريخ العربي .. وأن أثر الحب الاغريقي في الشعر الجاهلي لا يرقى اليه الشك . والتقاليد الهللينية في الحب تتضح في شعر المرقش الاكبر ، ودليلهم انه قال في ابنة عمه أسماء :

واذا ما سمعت من نحو أرض
بمحب قد مات أو قيل كادا
فاعلمي غير علم شك بأني
ذاك وابكي لصفد أن يفادي

وكذلك تأثر طرفه بن العبد البكري بتصوير الاغريق للحب .. فهو يصور حبه لسلمى بالاشارة الى مصير الشاعر المرقش الذي مات غراما ، ففكرة الحب القاتل قيسها الشعراء الجاهليون من اليونان .

وشعراء المدينة تتضح فيهم الفكرة الاغريقية عن الحب الذي يقتل . وحسان بن ثابت يقول :

يالقوم هل يقتل المرء مثلي
واهن البطش والعظام لسؤوم
شأنها العصر والفراش ويعلو
هالجبين ولؤلؤ منظوم
لو يدب الحولي من ولد الذ
ر عليها لاندبتها الكلوم

وهكذا أصبح الحب الذي يقتل تقليدا شعريا عند الجاهلية بتأثير الاغريق . ولاعشى سمي محبوبته قتولا للرجال .. كما أنه أدخل فكرة يونيانية أخرى الى الشعر العربي .. أليس هو القائل :

علقتها عرضا وعلقت رجلا
غيري وعلق أخرى غيرها الرجل
وعلقتني أخيرى ما تلائمني
فاجتمع الحب حبا كله قبل
فكلنا مغرم يهذي بصاحبه
ناء ووان ومخبول ومختبل

وعقد هذا المستشرق الاميركي صلة بين هذه الابيات وقول موسخوس حوالي ١٥٠ قبل الميلاد : « كان بان يحب جارته ايخو ، وأحبت ايخو ساتيرا يتوثب فرحا ، وغرق الساتير في حب ليد ... وكما كانت ايخو غرام بان المتقد ، فكذلك كان الساتير لهيب ايخو ، وتتمكن ليد من زمام لهيب الساتير .

لقد كان حبا متبادلا ، فالعدل يأخذ مجراه فكل من هذه القلوب يحتقر محبه ، وكذلك كان يزدري لأنه هو نفسه كان عاشقا » .

وهكذا استطاع الاعشى أن يضيف تقليدا آخر من الحب الاغريقي الى الحب العربي في اقتباسه هذه الفكرة عن موسخوس . وتصور مدى ثقافة الاعشى ، واتصاله بالثقافة اليونانية حتى استطاع أن « يطعم » الحب العربي بمثل هذه الفكرة البعيدة .

وفي اعتقادي ان هذا الاتجاه في البحث ليس لـه من هدف سوى رد كل الافكار العربية الى أصول غربية ليظهروا ضحالتها ، وعدم قـدرة العربي على الاتيان بجديد .. لان ذاتيته مغلقة ، ومناقشة هـذه الآراء لاتحتاج الى عناء كبير ، فشعر الجاهليين انبثق من ذاتيتهم ، صوروا فيه أنفسهـم وبيئتهم .. ومن المعروف أن هذه العواطف مشتركة بين جميع الناس في كل مكان وزمان ، فالحب الـذي يختلج في نفس العربي في الجاهلية هو نفسه الذي يختلج في جميـع الناس من كل جنس ولون، فهو احساس انساني أصيل وفكرة ان الحب يقتل يحسها كل انسان في مختلف العصور والبيئات ، فهي تنبع مـن صميمه .. لان برع الحب يحسه كل من أتاه الله رقـة في الحس ، ورهافة في العاطفة ، وقلبا مستهاما يهفو الى الجمال ، فالمرخش عندما صور قتل حب أسماء له ، قد أحس هذا المعنى ، وعانى هذه التجربة المرة ، وعلق قلبـه بابنة عمه أسماء ، وهو في سن غضة ، ولقي كثيرا من تباريح الهوى المشبوب ، فقد قال له عمه : لا أزوجك حتى تعرف بالبأس ، فسافر المرقش في طلب المجد ، وأصيب عمه في أثناء غيابه بضيق شديد ، فجاءه رجل من بني مراد ، وأطمعه بالمال ، فزوجه أسماء على مائة من الابل .. فلما عاد المرقش موفور الرزق أخفوا عنه خبر الزواج .. ثم اكتشفه في حديث طويل روته جميـع الكتب الادبية ، وذهـب لفوره الـى قبيلة المرادي .. وهناك قضى شهيد الحب .

فليس تصوير المرقش الحب كقاتل الا الصدى لما أحسه من جوى وحرقة ، فقد انبثق من ذاتيته ، وعاش في جو هذا الحب اليائس الذي أطبق عليه .. فهل ثمة عجب اذا صوره على هـذه الشاكلة ؟ ولم يكن المرقش وحده في الجاهلية ضحية الحب فالعرب أمة امتازت بتوفر الرقة في الاحساس ، ويقظة المشاعر ، والاستجابة لنداء الحب والجمال . يقول ابو الطيب الوشاء في كتابه الموشي :

« وقد عشق أكثر العرب ، بل كلهم قد عشق »
ولقد أصاب الموشى كبد الحقيقة فالحب كان يجري في دم كل عربي .. والحب يفضي الى العـذاب .. خصوصا اذا علمنا ان بعضهم مات فعلا من أثر الحب، فهذا الشاعر مسافر بن أبي عمرو من بني أمية كان من سادة قريش ، جم المال أحب هندا بنت عتبة بن ربيعة وتزوجها أبو سفيان ، فلما بلغه نبأ زواجها أصابتـه لوثة ، واعتل حتى استسقى بطنه ، ومات شهيدالحب، وقال فيها أشعارا نمت عن العذاب الهائل الذي كان يعانيه من جراء هذا الحب القاتل .

وشاعر آخر في الجاهلية قتله الحب فعلا وهو عبد الله بن عجلان ، من قضاعة تيمه الحب ، وأضنـاه . وكان له زوجة يقال لها هند .. فطلقها ، لانها لـم

تنجب له ولدا ، فتزوجها غيره ، وأحس بلهب الشوق اليها ، فعضته الندامة ، وأدنفه الهيام ، وأسقمه الشوق ، وغنى لواعجه القاتلة :

فارقت هندا طائعا
فندمت عند فراقها
فالعين تذري دمعة
كالدر من آماقها
متحلبا فوق الردا
ء يجول من رقراقها
خود رداح طفلة
ما الفحش من أخلاقها
ولقد ألذ حديثها
وأسر عند حديثها

ومات من تأثير الحب .. فهل هذا الشاعر تأثر بتصوير اليونان للحب الذي يقتل .. فقتل نفسه ؟.

لقد برع الشعراء الجاهليون في تصوير الحب لانهم أحسوه،وعاشوه، ولاقوا منه البرح والعذاب.. وهذا مالك بن الصمصامة كان عاشقا لجنوب بنت محصن الجعدي ، فمنعه أخوها منها وهدده بالاسر ، وجز الناصية اذا تعرض لها .. فقال هذه الابيات الحزينة التي تعبر عن صدق حبه :

وما الحلق بعد الاسر شر بقية
من الصد والهجران وهي قريب
ألا أيها الساقي الذي بل دلوه
بقربان يسقي هل عليك رقيب
أحقا عباد الله أن لست خارجا
ولا والجا الا علي رقيب
ولا زائرا وحدي ولا في جماعة
من الناس الا قيل أنت مريب
وهل ريبة في أن تحن نجيبة
الى الفها أو أن يحن نجيب

انها نغمة آسية لا تصدر الا عن قلب هاضه الحب، ولاعه الهوى ، فقد أحب الشعراء في الجاهلية ، وأخلصوا في حبهم ، وتعذبوا ، فلا غرو اذا صوروا الحب في هذه الحرقة واللوعة ، ورأوه قاتلا ، لانه في الواقع قتلهم ، فليس هنالك أية صلة بين تصوير الحب عند الاغريق ، والحب في الجاهلية الذي كان هتفة صادقة بين حناياهم .

وأصبح « الموت غراما » مادة لكل شاعر ذي مكانة كما يرى هؤلاء المستشرقون .. وانتقل الى الشعر الاسلامي ، فأبو ذؤيب الهذلي الذي قضى في مصر آخر أيامه كان أول من تأثر في الاسلام بالروح الاغريقية في الحب فشعره العاطفي القوي ليس سوى صدى رداد لاثر الاغريق .. فمصر كانت بيئة يونانية، فمن الطبيعي أن يتأثر بها أبو ذؤيب .. وكل هذا مردود لان أبا ذؤيب في ذاتيته عميق الشاعرية سري الوجدان ، وتعمقت عاطفته اثر المصيبة التي حاقت به بموت أولاده ، فرثاهم أوجع رثاء ، ونزف دموعه من قلبه جوى عليهم ، فالاحداث الاليمة هي التي عمقت أحاسيسه ، وجعلته يصور في شعره عن طابع عاطفي قوي .

وكذلك لم ينج الشعر العذري .. ربيب الاسلام

والبادية .. من أثر الاغريق ، كما يرى بعض هؤلاء المستشرقين ، فجميل بثينة يتابع الجاهليين بتصوير الحب ، يقول :

ألا أيها الركب النيام ألاهبوا
أسائلكم هل يقتل الرجل الحب
فقالوا نعم حتى يرض عظامه
ويتركه حيران ليس به لب

ويقول :

لكل حديث بينهن بشاشة
وكل قتيل بينهن شهيد

فالشعراء - كما يدعون - كانوا أسبق من الفلاسفة الى استخدام التصوير اليوناني للحب .. ففكرة الاستشهاد في الحب ليست سوى صدى لتصوير الاغريق لفكرة ضحية الحب نمازجها فكرة أخرى هي تصوير اليونان للحب كمقاتل أو جندي ، وعقدوا صلة بينها وبين تاريخ الشهداء عند المسيحيين الذي يجنح الى استعمال العبارات الغزلية ، والعرب في هذه الفكرة أصبحوا على علم بسير الشهداء المسيحيين .

وفي اعتقادي أن هذا تمحل كبير ، فالاستشهاد في الحب فكرة أصيلة في الشعر العربي صدرت عن الشعراء العذريين بتأثير الاسلام ، فالنبي صلى الله عليه وسلم يقول : « من تعشق فعق ، فهو شهيد » وقد عشق العذريون ، وعفوا ، فكانوا شهداء ، فالاسلام أنقذ الناس من جاهلية جهلاء ، وخلصهم من المادية ، وجعلهم ينعمون في روحانية صافية .. كما أن الاسلام أعطى المرأة حقوقها كاملة ، وأنقذها من العبودية ، وأصبحت تتمتع بكرامتها كانسان ، فتهذب المشاعر ورقت العواطف ، ونمت الفردية وأصبح الاستشهاد في الحب أحد الاعمدة التي يقوم عليها الشعر العذرى ، فكثير من هؤلاء الشعراء المعذبين ماتوا فعلا أو أصابهم أكثر من الموت ، فالهوى عندهم هو : « الهوان الصراح ، والبلاء المتاح لانه يهين الكريم ، ويذل العاقل ويحط منزلة الشريف » .

روي عن محمد بن جعفر بن الزبير قال : كنا عند عروة بن الزبير ، وعنده رجل من بني عذرة ، فقال له عروة : يا عذري بلغني أن فيكم رقة وغزلا ، فأخبرني ببعض ذلك .. فقال : لقد خلفت في الحي ثمانين مريضا دنفا عشقا مابهم غير الحب قد خامر قلوبهم .. فحي هذا شأنه لابد أن يفيض منه الشعر كما يسقسق العصفور ، أو تنفح الزهرة عطرها .. فهل هنالك عجب اذا كان الشعراء العذريون أوفياء لعواطفهم ، ودينهم ، فتألموا ، وعفوا .. وكانوا شهداء .. وكانت خاتمة الكثير منهم الاستشهاد فعلا .

وفكرة الجنون في الحب أيضا اغريقية .. قبسها العرب ، وغنوها في غزلهم مثل قول جميل :

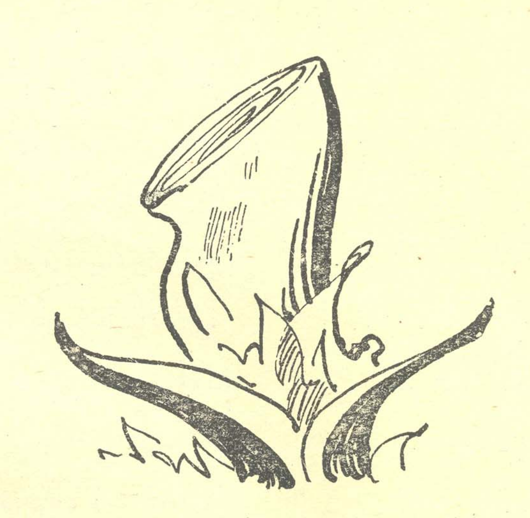
فظللت كالمقمور خلقته
هذا الجنون وليس بالعشق

انها شاهد آخر على تزايد تأثير الاغريق في تصوير الحب عند العرب .. وكيف لا ؟ .. وقد ظهر التعريف الافلاطوني للحب كنوع من الجنون القدسي على لسان أحد المتناظرين في مؤتمر الحب الذي عقدته فئة من الادباء المتصلين بيحيى بن خالد البرمكي .. والحق ان هذا تجن على الحقيقة ، ففكرة جنون الحب عربية

أصيلة ، لا علاقة لها باليونان .. فالصورة الشعرية هي نتاج مركب ، ومزيج من العاطفة والخيال والبيئة والشعراء العذريون الذين وصفوا الحب بالجنون انتزعوا هذا التصوير من حياتهم الخاصة . ومزاجهم الرهيف ، وعاطفتهم التي عانت بالفعل هذا الجنون القدسي الذي أشاعته خيبة الحب فيهم ، فقد هام الكثير منهم على وجوههم ، وعراهم الجنون فعلا، ووصفوا هذا العذاب الذي أعقبته لوثة في العقل . سئل أحد من بني عامر عن مجنون ليلى .. فقال : عن أيهم تسألون ؟ .. عندنا أكثر من مئة يعرفون بهذا .. فالذين اماتهم الحب ، ومزقهم كثيرون .. أليس من المعقول أن ينعكس أثر هذا الجنون في شعرهم ؟ أليس الادب في صميمه تعبيرا عن النفس الانسانية في مختلف شؤونها وشجونها ؟ ففكرة الجنون في الحب ليست سوى ثمرة لهذا الجنون الذي ألم بالعاشقين المدلهين ،

وبعد .. انني أفهم أن يزعم المستشرقون ان الحب العربي قد تأثر بتصوير الاغريق للحب بعد ترجمة الفلسفة اليونانية في العصر العباسي كما بدا في الرسالة الثالثة من رسائل اخوان الصفا ، أو في كتاب الزهرة لابن داود ، أو في كتاب طوق الحمامة لابن حزم ، فهؤلاء تثقفوا بالاغريقية ، وأثرت في تفكيرهم .. أما الشعر العربي في عهده الباكر .. فهذه قضية أعتقد أنها مبالغ بها ، فالحب العربي نبع من صميم العرب ، وتبلور قصائد حية عبرت عن مشاعرهم الرقيقة ، ومثلهم العليا في أعذب عاطفة اعتلجت في قلب انسان .

محمد حاج حسين



دنيـــا عجيبة !!

بقلم : اسكندر لوقا

اذكر وجهك جيداً عنـــدما خرجت . إنها ليست المرة الأولى التي تغادر فيها المنزل متجهمـــاً وكأنك أحد الأباطرة القساة . لقد مضى عليك زمن طويل وأنت تعاملني كما لو كنت جـارية سوداء في خدمة مملكتك أو قطعة أثاث جامدة في أحد أركان المنزل المهملة .

أتساءل عن الأسباب التي أقامت بيني وبينك جدار الصمت فلا أعثر على عذر واحد لك . يبرّر نفورك مني . ولقد عزمت صباح اليوم أن أطلب منـــك الاستماع إليّ لأحدثك عن الظروف الـــتي رافقت زواجنا فأثير بذلك في جنبات رأسك صوراً من الماضي الذي طرّزناه بالأماني الحبيبة إلى قلبينا : البيت السعيد . الأطفال . النزهات والرحلات . وغير ذلك من الآمال . . ولكنني تردّدت في اللحظة الأخيرة لأنني لست المسؤولة عن التحوّل الذي طرأ على شخصيتك . أحببت أن أفسح الطريق أمامك لتمضي وحدك . ـ إلى أين ؟ لا أدري . وعند ما طواك المنعطف، وكنت أراقب عرض كتفيك من خلال نافذة سيارتك الخلفيـة ، تساءلت ، ترى هل أخطأت في تقديري للأمور ؟ ترى هل كان ينبغي لي أن أستوقفك قبل أن تطوي الطريق كله ؟

لست أعترض على تقصيرك نحوي أو نحو أولادنا الثلاثة من حيث المأكل والمشرب والملبس ، ولكن الحياة ليست أكلاً وشراباً وكساء وهدايا . قد يكون الأمر بالنسبة إلى الصغار كذلك . ولهذا فهم يتلهفون للقياك وينتظرون عودتك إلى المنزل بفارغ الصبر ، ولكنه بالنسبة إليّ يختلف كل الاختلاف . إنك المرفأ الذي أريد أن أنتهي إليه لأستريح من ضجيج الأمواج الذي ملأ حياتنا طوال السنوات الفائتة . لقـــد كانت السنوات الأولى لحياتنا الزوجية قاسية بلاشك . ولكن السحب انجلت وظهر وجه السماء المشرق . لقد تمكنت من الثبات في مضمار عملك ، وها أنتذا اليوم رجل أعمال مرموق في مجتمعك يقترن اسمك بالجاه وبالثراء ، وهذا ما كان يجعلني أتردّد في ارتكاب عمل طائش ما يهـدد سمعتك ومركزك . إن نجاحك كان أشبه بتشييد سعادة إنسان على أنقاض آخر . إن جانباً كبيراً من نجاحك هذا يمتزج بما قدّمته لك من تضحيات على حساب صحتي وكبريائي معاً .

لقد احتملت كثيراً ، كما تعلم ، حتى صرت ما أنت عليه الآن من الزهو والكبرياء. إن بضع سنوات مضت دون أن أطالبك بوفاء التزاماتك نحوي . كان دوري يقتصر على الوقوف بجانبك وليس عرقلتك . فقد عاكستك الظروف فتدهورت تجارتك وتزعزع مركزك المالي في

الأسواق ، ولكن صمودي جعلك تستمر في محاولاتك ، غامرت ، ونجحت ، والآن حان لي أن أشاركك تذوق ثمار هذا النجاح لأنه نجاحي كما هو نجاحك .

كنت في البدء لا تبرح المنزل إلا إذا اختلست قبلة الوداع ، بطريقة ما ، بعيداً عن العيون الصغيرة التي ترقبنا . وكنت تحتج إذا ما تحاشيتك ذات مرة ولا تتورع عن مخاصمتي عاتباً : إذا رآنا الأطفال متحابين أفضل من رؤيتنا متخاصمين !

فماذا حدث لك ؟ لماذا أصبحت تتحاشاني لتخرج من المنزل وكأنك سجين قد أخلي سبيله ؟ انك تستقبل العالم الخارجي بملامح فيها كل الحبور والاسترخاء ، وأما عبوسك وتقطيب جبينك فلي وحدي . لماذا ؟

ترى هل ثمة امرأة أخرى في حياتك كما يتحدث الناس عنك ؟ أم أن رأسك مشحونة حقاً بأفكار تتعلق بشؤون عملك ولا أقوى على استيعابها ؟ ائن كان الأمر كذلك ، فكيف تبرّر سلوكك السابق معي أيام المحنة ؟ كنت تقول : إنك الفكر الذي يساعدني على حل مشاكلي . إنك حزمة الضوء الباهرة التي تنير أمامي طريق الظلمات

الأمر كما يبدو لي هو كما يتحدث الناس عنك ربما كانت المرأة أكثر جمالاً مني ، ولكنني أصدقك القول بأن ليس ثمة امرأه أكثر إخلاصاً مني لك . لقد عشت بجوارك سنوات طويلة كظلك ، وأنجبت لك ثلاثة أطفال سينظرون إليك يوماً ما نظرتهم إلى مثل أعلى . كنت معك دائماً . قاسمتك متاعبك وكنت تطلب مني ألا أفقد قدرتي على الابتسام ، فحافظت على ابتسامتي ، تلك التي شقت دربي إلى قلبك . هل تذكرها ؟ لقد فعلت كل ما طلبته مني إكراماً لمشاعرك وما كنت أعتقد يوماً أن هذه الابتسامة ستفقد كل أهميتها في ناظريك . ربما كانت ابتسامة المرأة الأخرى أكثر إشراقاً من ابتسامتي ،

ولكنها ، لن تحتمل مواجهة الصعاب إذا ما داهمتك الخطوب ثانية . إنها لن تغالب الفشل كما يغالب الضعيف القوي حتى ينتصر عليه . صدّقني .

اعلم أن الرجال كلهم ينقلبون بعد مضي بضعة شهور على حياتهم الزوجية . وأحياناً تبدو لهم هذه الحياة مملة ومقرفة لشدّة رتابتها ، ولكن ما الذي يدعوك كي تصير واحداً منهم ؟ ما الذي يمنعك من إضفاء أبعاد جديدة على حياتنا الزوجية ما دامت الوسائل ملك يديك ؟ إنها لا تكلف سوى القليل القليل من المال والوقت . نزهة أسبوعية نقضيها برفقة الأولاد في مصيف قريب . سهرة هادئة نمضيها في أحد المقاهي العائلية . ليلة عادية نطوي جانباً منها في مشاهدة فيلم طريف . كلها أو واحدة منها توضح لك الأمور ، وقد تفجّر كل العواطف التي بقيت حبيسة صدرك دون أن تدري كيف ولماذا كل هذه المدة من الزمن . كذلك نجدّد حياتنا ، وإن شئت فقل نبدأها من جديد . ولكنك للأسف لا تريد أن تنتبه إلى ما هو قريب منك ، ويخيل إليك انك مركز العالم وإن الآخرين ذرات تدور في أو ينبغي لها أن تدور في فلكك .

ان الزوجة ، أية زوجة ، تستطيع أن تواجه موقفاً كهذا بموقف مماثل ، وعندئذ تكون الخسارة فادحة بالنسبة إليك إن المرأة المتهورة اقدر على تلويث سمعة زوجها من قدرته على تلويث سمعها ولقد قررت أن أكون تلك المرأة المتهورة لأنك أردتني أن أكونها .

كنت أحاول ، حتى الآن ، أن أبقى تلك الفتاة العاقلة العفوية التي رضيت بأن تربط مصيرك بمصيرها دون أن تسأل عن حاضرها او ماضيها وكذلك عما تنشده هي نفسها منك . ولكنك أحرقت كل سفن العودة إلى الشاطىء

قلت لي يوم أن التقينا :

– انك المتعة الوحيدة التي سأتذوق طعمها طوال حياتي .

واجبتك :

– كلي لك .

وكنت أعني كل ابعاد هذه العبارة القصيرة .

وعندما جئت الى منزلنا طالباً يدي وجدتني قد مهدت السبيل أمامك لانجاز مهمتك رغم اعتراضات بعض افراد الأسرة احتراما لتقاليدها الموروثة في قضايا الزواج .

قلت لي سأعتئذ وأنت تشد على يدي :

– لن تندمي على مافعلت .

واجبتك :

– مادمت معي .

وكنت أعني ابعاد هذه العبارة القصيرة أيضاً .

ولكنك نسفت كل شيء بابتعادك عني ، وبفقدك فقدت نفسي إنك اليوم كمن يطوي صفحات مشرقة ، على قساوتها ، في حياتي وترمي بها الى فارعة الطريق لتذورها الرياح ، وكأن شيئاً لم يكن إنك دائماً على عل من أمرك ، وبودي لو أقوى ذات مرة على اعتراضك لاضعك أمام مسؤولياتك ان نوازعي الشريرة توحي الي باذلالك ، لأنني فقدت إيماني بقدرتك على التفوق على نوازعك الشريرة التي تقودك الى هاويتك . وقد يطول الزمن لتسوية الحساب فيما بيننا ، ولكنك حين تجلس أمامي ستجدني لا أقل عنك مقدرة على تغطية كل تصرفاتي .

* * *

واغلقت الزوجة الضائعة نافذة غرفتها مودعة بعض المساحات الضوئية الباهتة المحيطة بالمصابيح المعلقة على أعمدة الكهرباء . وارتسم أمام ناظريها طيف لوجة باسم طرق صاحبه بابها في أدب بالغ سائلا عن زوجها . وتذكر حوارهما في كثير من الدقة . والرهبة :

– لقد خرج منذ قليل .

– اعلم ذلك ياسيدتي .

– ولماذا جئت تسأل عنه ؟

– اعتقدت انك في حاجة الى من يؤنسك !

– لقد ضللت سبيلك ياسيدي .

– ولكنك تعلمين انه ذاهب اليها .

– ان ذلك لا يعنيني . فليذهب حيث يشاء .

وتمنت لو لم تضيع الفرصة من يدها . وتساءلت هل يعود ثانية . عندما يطرق الباب لن تتردد في استقباله . سترحب به وتحتضنه لن تتوانى عن استرداد بعض كبريائها الذي سفحته عند قدمي زوجها

واشتد الطرق على الباب فانتبهت الى أن ثمة طرقاً حقيقياً . تراه ذلك الشاب المغامر ؟ هل تفتح له حقاً فتدعوه وتحتضنه ؟ هل تندفع في تيار التجربة ؟ عشرات من الصور ازدحمت أمام عينيها لرجال يحتضنون النساء ، لكؤوس تدور على شفاه السكارى ، لأضواء خافتة تشهد لقاءات مسروقة عندما لم تجد مناصاً من التوجه نحو الباب لترى من القادم .

* * *

لم يحن لها ظهره . ولم يبتسم بأدب بالغ . فقد كان القادم زوجها :

– في المرات القادمة انتبهي جيداً الى جيوبي عندما تفرغينها . والآن أين المفتاح ؟

وأسرعت الزوجة الضائعة لتجلب له المفتاح بهدوء عجبت هي نفسها منه . لقد كان التجهم المرتسم على وجه زوجها والتأنيب الذي استقبلها به أهون عليها مما تراءى لها خلال اللحظات الأخيرة التي سبقت فتح الباب . كانت أضعف من أن تعرض نفسها في ساعة يأس لنتائج تجربة خيل اليها انها ستقوى على خوضها دون تردد أو حذر .

وعندما عادت اليه ، لم تفه بكلمة ، بل انها ارتمت على صدره تبكي . كانت في تلك الساعة اشبه ما تكون بغريق أشرف على الموت فجاءت موجة طائشة لتقذف به على الشاطيء وتنقذه من نهاية بشعة .

وسمعها زوجها تتمتم بصوت خافت متهدج : ستقذف به الي يوماً موجة طائشة . سأنتظر حتى يعود .

ولكنه لم يعر ذلك اهتماماً بأكثر من قوله متضايقاً : أمواج وشواطيء . ولا يبقى سوى السابحين والسابحات ! دنيا عجيبة حقاً !

واصر على ان يتخلص من سترته بنفسه دون معاونتها .

دمشق – اسكندر لوقا

★ ★ ★

الجديد فى المجلات العلمية

بقلم : ز ـ ك

حديقة الميكروبات

يعتبر المنزل القائم في شارع ٢١١٢ بمدينة جورجتون في كولومبيا من أغرب المنازل في العالم فهو يحتوي على حديقة من نوع خاص تحتوي على أخطر الجراثيم الموجودة في العالم ، موزعة في عديد الثلاجات التي يكتظ بها المنزل ، وهي في حالة سبات عميق ، بالاضافة إلى مجموعة ضخمة من خلايا حيوانات راقية تحتوي على خلايا سرطانية منوعة .

وتعتبر هذه الحديقة أكبر بنوك الكائنات الدقيقة في العالم وتقدم هذه الحديقة الميكروبات ذات المواصفات العلمية الدقيقة للمؤسسات العلمية في العالم ، وتوضع الجراثيم في وسط غذائي خاص وتترك حتى تصل إلى درجة نمو خاصة ، ثم تجمد الجراثيم النامية بالتبريد وبعد ذلك يسحب الهواء من الأنبوبة فيتبخر الماء تاركا الجراثيم جافة تماماً وتشبه قرص الاسبرين ولكنها تحتوي على ما لا يقل عن مليون جرثومة في حالة سبات عميق قد يدوم عشرين عاماً ، ويمكن بعدها ايقاظها باضافة مواد غذائية لها فتنمو وتتكاثر ثم يعاد تجفيفها وانامتها عشرين عاماً أخرى ..

هذا ، وتأتي الطلبات إلى هذه الحديقة من جميع انحاء الولايات المتحدة والدول الاوربية وغيرها لتوريد الميكروبات والجراثيم والخلايا السرطانية للمعاهد الدراسية ومعاهد البحوث ومصانع الجبن والمدابغ وغيرها من المصانع التي تحتاجها لتصنيع منتجاتها .

انسان آلي جبار يزن ٨٥ طناً

انجزت لجنة الطاقة الذرية الامريكية تصميم انسان آلي تبلغ زنته ٨٥ طناً وستجري تجربته في المركز القومي لتجارب الصواريخ النووية بالقرب من مدينة لاس فيجاس بولاية نيفادا . ويستطيع هذا الجهاز الذي أطلق عليه اسم « الجعران » والذي يبلغ ارتفاعه ٧,٥ متراً أن يتناول المواد المشعة دون تعريض الشخص الذي يتولى إدارته من داخله للخطر . كما يستطيع هذا الانسان الآلي أن يتحرك في أمان في الاماكن التي تعتبر خطرة على الانسان وهو مزود بذراعين يبلغ طول كل منهما ٤,٨ متراً ويستطيع أن يلتقط بيضة دون الحاق الأذى بها كما يستطيع أن يقوم بجميع عمليات الاصلاح إذا زود بالأدوات اللازمة وذلك في الأمكنة الخطرة من المفاعلات النووية والصواريخ . ولهذا الانسان جدران يبلغ سمكها ٣٠ سنتيمتراً تكفل وقاية الانسان الذي يديره والقابع في قمرته التي يبلغ وزنها ٥٠ طناً وهو يستطيع الرؤية الكاملة من

خلال خمس نوافذ مختلفة يبلغ سمك زجاجها ٥٧،٥ سنتيمتراً وهو مشبع بالرصاص ويؤمن الوقاية من الاشعاع التي يؤمنها جـدار من الخرسانة سمكه ١،٥ متراً .

وتقوم ثلاث آلات تصوير تلفزيونية بالتقـاط صور تظهر على لوحة المشاهدة أمام العامل المختص في داخل القمرة وعندما يريد هذا العامل أن ينظر داخل مفاعل ذري ساخن او حول إحدى الزوايا فانه يضع آلة التصوير في اليد الميكانيكية لتتوكز على الشيء المطلوب معـاينته ولزيادة وضوح الرؤية يوجد في هذا الانسان الآلي منظار يستطيع تكبير المرئيات إلى ستة امثال حجمها الطبيعي .

ولا يتأثر هذا الانسان الآلي بالتغيرات الجوية وهو يستطيع العمل في الأماكن المكشوفة في درجات تتراوح بين ٣١ درجة سنتيغراد تحت الصفر و٥٤ درجة سنتيغراد وتتوفر الراحة للعامل الموجود بداخله عن طريق جهاز تكفيف تبلغ زنتـه ثلاثة أطنان . ويزود « الجعران » بالكهرباء بواسطة محرك تبلغ قوته ٥٠٠ حصان ، كما يقوم محرك مساعد قوته ١١٠ حصاناً بادارة المولد الكهربائي والمضخة الهيدروليكية ويوجد للاحتيـاط محرك كهربائي قوته ٢٠٨ فولت مع البطـاريات اللازمة للطوارىء ، ويستطيع هذا الانسان الآلي أن يجر وراءه مركبة يصل وزنها إلى ٤٥،٥ طنـاً أي ما يبلغ نصف وزنه ويسير على جنازير كالدبابات وبسرعة تبلغ ١٦ كيلومتراً في الساعة .

هذا وسوف يقدم هذا الانسان الجبار خدمات كبيرة في ميدان المفاعلات والصواريخ ومركبات الفضاء .

تخفيف وطأة رياح الأعاصير المدمرة

وضعت الولايات المتحدة مشروعاً هاماً لدراسة الوسائل الكفيلة بتخفيف وطأة رياح الأعاصير المدمرة وقد ابتكر من أجل ذلك أجهزة جديدة ومستحدثة لتوليد وتوزيع بلورات يودور الفضة لاحداث التبلور في السحب ، وستقوم طائرات نفاثة تحلق على علو شاهق بتوزيع هذه البلورات على أماكن استراتيجية في الاعاصير خلال الموسم الحالي ، وستقوم إحدى طـائرات الكشف عن الاعاصير بتنسيق حركة الطائرات وتوجيهها ، كما ستقوم طائرة خاصة أخرى بدراسة التغيرات التي تطرأ على تكوين العاصفة وتلك التي تطرأ على القوى التي تدفع رياح العاصفة خلال الساعات التي تسبق القيام بعملية بلورة السحب وبعدها .

وستضاف هـذه المعلومات إلى الدراسات التي ينظمها المشروع القومي الامريكي للبحوث الخاصة بالاعاصير والتي حصل عليها خلال السنوات الست الأخيرة ، والغرض من هذا المشروع إحـداث مناطق عدم استقرار في قوام رياح الاعاصير تؤدي إلى توسيع نطاق الحلقة التي تمثل أعنف مراحل الرياح بالقرب من مركز الاعصار ومن ثم تقلل من شدته .

حركة جديدة للنهوض بالمناهج الدراسية الخاصة بالعلوم :

تختلف البرامج الجديدة للعلوم في اغراضها عن البرامج التقليدية وتكتـح هذه الحركة معظم دول العالم المتطورة إذ أصبحت البرامج الدراسية الجديدة تقدم مواد العلوم كما يراها العلماء وعلى مستويات ومفاهيم النظريات الحديثة . فالمطلوب قبل كل شيء أن يفهم الطالب الحقائق والمعادلات والمباديء التي يتعلمها ، ولهذا فان الالمام بالعلوم والمقدرة على استيعابها في الذاكرة لا يكفيان للحصول على درجة النجاح بل على الطالب ان يظهر مقدرته على التدليل

من واقع المفاهيم والنظريات واستخدامها في اوضاع غير الاوضاع المعهودة ، كما ينتظر منه أن يفسر المعلومات الخاصة بالتجارب التي لم يسبق له القيام بها كما يتعين عليه أن يظهر مقدرته على استخـــدام الاساليب الفنية والاجراءات التي تتصل بالاستطلاع العلمي يجب أن تتمشى هـذه البرامج مع روح العصر الحديث اولاً بـــأول وأن تحقق المصالح الفردية ايضاً .

ويعتبر الاصلاح الحالي في المناهج حركة واجراءاً فذاً في تاريخ التعليم وبخاصة في الولايات المتحدة اذ تحقق تطبيق المبادىء التالية في أكثر من ١٥٠٠ مدرسة ثانوية حتى الآن :

١ – وضعت لأول مرة كتب مدرسية لاختبار قيمتها بصفة تجريبية في الصفوف الدرراسية لمـــدة عامين او ثلاثـــة اعوام قبل تعميم تدريسها بصفة نهائية ويجري اتباع نفس الاجراء التجريبي بالنسبة للأدوات الدراسية المساعدة لكي تكمل كل برنامج في المنهاج .

٢ – وتعتبر الناحية المخبرية في المنهاج الجديد اكثر ارتباطاً بالنشاط الدراسي في مجموعة مما كان عليه الحال في الدراسات السابقة

٣ – وروعي في التحسين الذي ادخل على المنهاج اشتراك الهيئات العلمية في النشاط المدرسي على نطاق واسع ، فقد كان العلماء يساهمون احياناً فيما مضى في وضع مادة البرامج الدراسية للمدارس الثانوية ولم يكونوا يساهمون في وضع المعايير التنظيمية والأساليب التي تتبع في التدريس او ابتـــكار الادوات الدراسية المساعدة .

٤ – كانت مناهج تدريس المواد العلمية تتلخص بصورة رئيسية في قدر معين من المادة التي يجري تدريسها اما الآن فإن الاهتمام يتركز في الكيفية التي يتيح بها تدريس هذه المادة كما يتركز في فهم كيان العلم ذاته .

٥ – بذلت جهود كبيرة لاخراج منهاج لمواد العلوم بحيث يقدم صورة موحدة للتدريب ، امـا الأمثلة المبعثرة التي كانت تتمثل في الاجزاء الصغيرة الفصول الموجزة في معظم البرامج القديمة فلم يعد لها وجود الآن .

هذا وأمل المسؤولون عن طريق هذه البرامج الدراسية أن يتم اعداد النشىء للدراسة مدى الحياة وبطريقة تمكنه من شق طريقه بنفسه ، وان يكون التعليم صالحاً ومتلائماً مـع التطور العلمي والمعيشي ومحققاً لصالح الفرد والمجتمع .

* * *

نواسيات

معنقة صاغ المزاج لرأسهـــا
اكاليل در ما لناظمهـــا سلك
جرت حركات الدهر فوق سكونها
فذابت كذوب التبر اخلصه السبك
وقـد خفيت من لطفها فكأنها
بقايا يقين كاد يذهبـــه الشك

من ديوان حبيبتي

الى مراهقة

للشاعر : نزار قباني

« رجل أنت ؟ »
قلتهـــا في تحدٍّ
ضاع مني فمي . فماذا أجيب

لا تكوني حمقاء ..
ما زال للنسر جناح
على الذرى مسحوب

لم أتب عنك
يا غبية عجزاً
ومتى كانت النسور تتوب ؟

تتحـــدينني !
وبي كبرياء
لم تسعها ... ولم تسعني الدروب .

لا تمسّي رجولتي

لو أنا شئت طعاماً
لكنت منه أجيب .

كنت أستطيع
أن أحيلك فحماً
فأذيب الرخام .. ثم أذوب

منطق الأربعين
يلجم اعصابي
فعفواً ... إن لم تثرني الطيوب

ما أنا فاعل
بخمسة عشر
شهد الله .. أنه تعذيب

شفتاك الصغيرتان

أمامي
وضميري عليهما مصلوب
وثب الارنبان .. نحوي
فما لي ؟
كجدار الجليد .. لا أستجيب
كلما فكرت يداي بقطف
ردني الطهر عنهما
والحليب
اذهبي ...
فالصداع يحفر رأسي
والرؤى .. والدخان .. والمشروب
لا تصبي الكحول
فوق جراحي
فالصراع الذي أعاني رهيب
لك عمر ابنتي

ولين صباحاً
وتقاطيعها . فكيف الهروب
اليدان الشمعيتان
يداهـــا
والفم الطفل .. سكر .. وزبيب .
كلما طفت في مكان جلوسي
طـاف بي
وجهها الصغير . الحبيب
أين أنجو من عقدتي ؟
كيف أنجو ؟
من ورائي .. ومن أمامي اللهيب .
إذهبي . إذهبي
كسرت سلاحي
ضاع مني فمي .. فماذا أجيب .

* * *

اختزال

من شعر : وصفي قرنفلي

غمزت وزاف البنطلون يلفها ساقا وخصرا
وتأودت في الضفتين تأود النغمات نضرا
ماذا ترى ؟ وترامت اليمنى ، وشال الغنج يسرى
ماذا أرى سبحان ما ... وأبيك ما أضمرت كفرا
وسجدت بالهدبين ، أمسح جسمها ، وأخط شعرا
في السفح قافية أدغدغها ، ودون الركن عشرا
وعلى الشفاه ، تقطر الكرز اللذيذ ورف عطرا
وعلى ظلال الهدب أغفت قبلة كالخمر سكرى
أنا شاعر القبلات بيض ، ما لهن صدى وحمرا
وتكسّرت فأخذتها ، كالكأس محتضناً وصدرا
ونضوت عنها ، لو رأيت ، صدارها ينحل فجرا
ونضوت عنها ، لو رأيت ، ولن ترى ، لينا وقسرا
ومضيت أختزل الهوى ، سطرا ، ودرب الشعر سطرا
فتن" تقول هنا ، وتومىء فتنة وتهم أخرى
أيقظت برعم نهدها ، فجرى على شفتي وفرّا
وأرحت رأسي ، فاستطاب مخدتيه ، واستقرا
تهويمة في الطيب عبر المنحنى ، حيناً ، وعبرَ ...
وكان حوض النور بين الناهدين ، يموج خمرا
وكأنني حلم عليه ، على لهاث الورد ، أسرى
ماذا أرى ؟ سبحان ما ... وأبيك ما أضمرت كفرا
يا جارتا لو أستطيع ، نظمت هذا الجسم شعرا
وتقول سر بيننا ، والشعر كيف يكون سرا ؟•

حمص (١٩٥٣)

اجمـــل ماقرأت

اخطاء امتي :

أحج كل ليلة الى غرفة ابنتي وغاليتي الحبيبة ، أحدثها ، أستمع اليها ، أنثر بين يديها أجمل ما قرأت وسمعت وصادفت وأرقب نقدها وتعليقاتها اللاذعة الدافئة .. وانتشي من عذوبة ضحكتها ولحن كلمتها .. تسألني وتجيبني ، تسخر مني الخبيثة أحياناً ومن كتبي القديمة ومجلاتي السمجة وأحياناً تنتشى من قراءتي فأعرف أن ما تفضله هو الأفضل ...

وبالأمس جاءتني ثائرة غضبى ، فأخذتها الى حضني وهدهدتها وهمست : معي لك هدية يا حلوتي ..

اسمعي . وقرأت لها عن زيتنا المهدور بل دمنا المسروق من أرضنا لتنعم به أوربا وأميريكا وتعيش بالدفء والرفاه ، تغذي معاملها ، تسير مراكبها ، ونتخبط نحن بالفقر والهوان والبرد والحرمان ...

كان شاب عربي على باخرة سياحة المانية في ميناء هانبرغ ..

انطلق صوت المذيع ...

تطلعوا نحو اليمين انها البواخر حاملات الزيت ..

هذه اميركية قادمة ... وهذه بريطانية .. و .. و .. و ..

ودق قلبي بعنف ..

وسددت أذني بأصبعي .. ولم يعد في استطاعتي الاصغاء الى كلام المذيع الثرثار .

كانت البواخر الاجنبية تطرح مخلفات الزيت من فوهاتها السفلية .

وكانت أحشاء المحركات تقذف الصديد البترولي المحترق الاسمر الى سطح الحياة الداكنة ..

وكانت نفسي تشعر بالعطش ، وتشتهي أن تشرب كل هذا الزيت المحترق .

كانت البواخر الاجنبية المحملة بالبترول العربي تقف بخيلاء ، ثقيلة كأنها ملكات الكبرياء ، تتباهى على البواخر الأخرى .

لماذا ؟

لأنها تحمل الزيت العربي ..

تحمل دمنا الشرقي نحن العرب الذين نعاني فقر الدم ..

تمتصه من قلبنا لنحيا بقلب فارغ ليس فيه دماء ..

كان رأسي يضج بالتساؤلات المعذبة « لماذا يحدث مثل هذا ؟ لماذا ؟ لماذا ؟ » .

ومرت باخرة أخرى جديدة .. ثم تريثت فأرست ... وفتحت أبوابها للرافعات وبدأ العمال ينشطون . كانوا يفرغون منها صناديق البرتقال . كان مكتوباً على كل صندوق كلمة (يافا) وكانت نجمة اسرائيل تحتوي كلمة (يافا) وتشد عليها خراطيمها كأنها سرطان ..

ومرة أخرى ، جنح رأسي بالتساؤلات المعذبة .. وكان الموج يرتفع شيئاً فشيئاً ملتطماً بجدار الباخرة الأخضر ، كأنه شرقية ثكلى تنتحب !

إن برتقال (يافا) اليوم يكتسح أسواق الفاكهة في المانيا ويدخل كل بيت معززاً مكرماً ملفوفاً بورق شفاف عليه نجمة هي علامة اسرائيل .

انه برتقالنا العربي ...

إنه هنا يغذي الأجساد البشرية مثلما يغذي بترولنا المسافر ، أجساد المصانع الثقيلة والخفيفة في أمريكا وانجلترا وغيرهما من دول العالم ...

ونحن .. نحن في شرقنا العربي ، ضعاف الأجساد والمصانع . نحتاج للبرتقال ، ونحتاج للزيت ، فلماذا يحدث مثل هذا ؟ لماذا ؟ لماذا ؟

واغمضت عيني ولم يعد بمقدوري أن أتفرج على بواخر أخرى .

وهمست في سري :

— « اخف الحقيقة أيها المذيع .. لا تقل لهم هذه البواخر تحمل دم بلادي الى الخارج . ولا تقل لهم هذا برتقال من يافا ..

عد بنا أيها الملاح .. عد .. فالرحلة مضنية تقتلني ..

بعد ساعتين عادت باخرة الزوار الى الشاطىء ، وفي المساء سألني الأصدقاء العرب الذين يعيشون في هامبورغ ..

— قص علينا .. ماذا رأيت في الميناء ..

قلت :

— رأيت فيه .. أخطاء أمتي .. »

أغلقت الكتاب ورفعت نظراتي المجهدة الى صغيرتي .. فراعني دمعة كبيرة تغطي العينين الزرقاوين ويغص بها الثغر المنمنم ، وآهة عميقة تنطلق من القلب الطفل ...

فجمدت الكلمة في حنجرتي وتصلبت على سؤال كبير .. لماذا ..؟ لماذا ..؟

ثم تنهدت وتمتمت .. ليت كل من يسافر يحمل معه نظراته العربية فيرى هناك أخطاء أمتنا العربية .. يراها بقلبه العربي وينقلها الينا دافئة مؤلمة .. فنعيش هذه الأخطاء .. عسانا يوماً نفكر بالخلاص منها جدياً . ونتلافى تكرارها فعلياً .. عساها تهز منا العقل فيعمل ويخطط ... بل نقابل العمل بالعمل والتخطيط بالتخطيط .

غصص الشوق

الموت . فقد من نحب .. فوق احتمال الانسان .. لماذا ؟ . لماذا ينتقي الموت الشاب الحبيب ، والطفلة الصغيرة ، والأم الحنون ؟.

لماذا تحرم الأم ابنها ... لماذا يخصه الموت دون سواه ...؟

أسئلة تبقى بلا جواب . تموت على الشفاه ، تحشرج في الحناجر ..

وهناك من يسمو بمصابه فيخلده ويخلد معه .. وتكون كلماته عزاء لكل مصاب .. ولنستمع معاً الى هذه المرثية الوجدانية الرائعة التي صاغتها روح شاعرنا الكبير عمر أبي ريشة عندما تلقى رسالة من أخته تخبره بوفاة ابنها الحبيب علي الشهابي ..

إنها تصوير للروح الحزينة المفجوعة ..

خط أختي ، لم أكن أجهله
إن أختي دائماً تكتب لي

حدثتني أمس عن أهلي وعن
غصص الشوق ، وبعد المنزل
ما عساها اليوم لي قائلة ؟
أي شيء يا ترى لم نقل ؟

●

وفضضت الطرس .. لم أعثر على
غير سطر . واحد ، مختزل
وتهجيت بجهد .. بعضه .
أن أختي كتبت في عجل !
فيه شيء . عن علي .. مبهم
ربما بعد قليل ينجلي
وتوقفت .. ولم أتمم . وبي
رعشات الخائف المبتهل
وتراءى لي علي كاسياً
من خيوط الفجر أسنى حلل
مرح اللفتة ، مزهو الخطا
سلس اللهجة ، حلو الخجل
تسأل البسمة في مرشفه
عن مواعيد انسكاب القبل
وبنات الحي في ملعبه
راحة تومي ، وطرف يجتلي !
طلعة استقبل الدنيا بها
ناعم البال ، بعيد المأمل !

●

كم أتى يشرح لي أحلامه
وأمانيه على المستقبل
قال لي في كبرياء أنه
يعرف الدرب ليعيش أفضل
إنه يكره أغلالي التي
أوهنت عزمي وأدمت أرجلي
سوف يعطي في غد قريته
خبرة العلم وجهد العمل
وسيبني بيته في غابة
تترامى فوق سفح الجبل
وسأعتز به في غده
وأراه مثلاً للرجل

●

عدت للطرس الذي ليس به
غير سطر .. واحد . مختزل
وتجالدت .. لعلي واجد
فيه ما يبعد عني وجلي
وإذا أقفل معناه على
وهمي الضارع .. كل السبل
غرقت عيناي في أحرفه
وتهادى مزقاً عن أنملي
قلب أختي لم أكن أجهله
إن أختي دائماً تحسن لي
مالها تنحرني نحراً ، على
قولها ، مات ابنها .. مات علي

قصيرتان

جلست صغيرتي الى جانبي تكتم ضحكة ساخرة وسألتني اي القصيدتين مجلتك وقرأت لجبران ...

قبل عدة قرون ، تلاقى شاعران في طريق يؤدي الى أثينا ، فابتهجا لرؤية أحدهما الآخر ..

وسأل أحدهما الثاني قائلاً : « ماذا ألّفت مؤخراً ، وكيف هي قيثارتك » .

فأجاب الشاعر الآخر ، وقال باعتزاز لقد أنجزت الآن فقط أعظم قصائدي وربما تكون أعظم قصيدة نظمت بالاغريقية حتى الآن . إنها ابتهال الى زيوس الأسمى » .

ثم سحب رقاً من تحت جبته قائلاً « ها . انظر ، إنها معي ، ويسعدني أن أتلوها عليك . تعال لنجلس في ظل شجرة السرو البيضاء تلك » .

وقرأ الشاعر قصيدته ، وكانت منظومة طويلة .

وقال الشاعر الآخر بلطف : « إنها قصيدة عظيمة ، إنها ستعيش على كر الأجيال ، وبها ستمجد » .

وقال الشاعر الأول بهدوء : « وما الذي تنشىء في هذه الأيام الأخيرة » .

فأجاب الآخر « لم أكتب سوى اليسير ثمانية أسطر فحسب في ذكرى طفل يطهو جنينة ،وألقى السطور .

قال الشاعر الأول : « لا بأس بها لا بأس بها » وافترقا .

والآن . بعد ألفي سنة ، تقرأ السطور الثمانية لأحد الشاعرين في كلّ لغة وهي حبيبة ومحفوظة .

ومع أن القصيدة الأخرى قد تسلّلت عبر العصور الى المكتبات وصوامع الأدباء ، ومع أنها مذكورة . فلا هي محبوبة ولا هي مقروءة .

فضحكت من أعماقي وقلت الجواب واضح ...

ابن زريق

هناك قصيدة أحبها كل الحب .. وألجأ اليها كلما كنت مجهدة .. فأرتاح في حضنها الدافىء وأطمئن وأتخلص مما أنا به من ضعف وعناء وأعود إنسانة جديدة ترى الدنيا حباً وإخلاصاً وحناناً وإبداعاً . .

لقد كلف علي بن زيق البغدادي بابنة عمه ثم ارتحل عنها لفاقة علته فقصد أبا الخير عبد الرحمن ومدحه بقصيدة بليغة فأعطاه عطاءً قليلاً . فقال ان زريق إنا لله وإنا اليه راجعون سلكت القفار والبحار الى هذا الرجل فأعطاني هذا العطاء ثم تذكر فراق ابنة عمه وما بينهما من بعد المسافة وتحمل المشقة مع ضيق ذات يده فاعتل غماً ومات . قالوا وأراد عبد الرحمن بذلك أن يختبره فلما كان بعد أيام سأل عنه فتفقدوه في الخان الذي كان فيه فوجدوه ميتاً وعند رأسه رقعة مكتوب فيها هذه القصيدة

لا تعذليه فإن العذل يولعه
قد قلت حقاً ولكن ليس يسمعه
جاوزت في نصحه حداً أضر به
من حيث قدرت أن النصح ينفعه
فاستعملي الرفق في تأنيبه بدلاً
من عنفه فهو مضنى القلب موجعه
قد كان مضطلعاً بالخطب يحمله
فضلعت بخطوب البين أضلعه
يكفيه من روعة التفنيد أن له
من النوى كلّ يوم ما يروعه
ما آب من سفر إلا وأزعجه
عزم إلى سفر بالرغم يزمعه
تأبى المطالب إلا أن تكلفه
للرزق سعياً ولكن ليس يجمعه
كأنما هو في حل ومرتحل
موكل بفضاء الله يذرعه
إذا الزمان أراه في الرحيل غنى
ولو الى السند أضحى وهو يقطعه
وما مجاهدة الانسان واصلة
رزقاً ولا دعة الانسان تقطعه
قد قسّم الله بين الناس رزقهم
لا يخلق الله من خلق يضيعه
لكنهم كلفوا حرصاً فلست ترى
مسترزقاً وسوى الغايات يقنعه
والحرص في الرزق والأرزاق قد قسمت
بغي ألا إن بغي المرء يصرعه
والدهر يعطي الغنى من حيث يمنعه
عفواً ويمنعه من حيث يطعمه

أستودع الله في بغداد لي قمراً
بالكرخ من فلك الأزرار مطلعه
ودعته وبودي لو يودعني
صفو الحياة وإني لا أودعه
وكم تشفع بي أن لا أفارقه
وللضرورات حال لا تشفعه
وكم تشبث بي يوم الرحيل ضحى
وأدمعي مستهلات وأدمعه
لا أكذب الله ثوب العذر منخرق
مني بفرقته لكن أرقعه
إني أوسع عذري في جنايته
بالبين عنه وقلبي لا يوسعه
أعطيت ملكاً فلم أحسن سياسته
وكل من لا يسوس الملك يخلعه
ومن غدا لابساً ثوب النعيم بلا
شكر عليه فعنه الله ينزعه
كم قائل لي ذقت البين قلت له
الذنب والله ذنبي لست أدفعه
هلا أقمت فكان الرشد أجمعه
لو أنني حين بان الرشد أتبعه
لو أنني لم تقع عيني على بلد
في سفرتي هذه إلا وأقطعه
يا من أقطع أيامي وأنفدها
حزناً عليه وليلي لست أهجعه
لا يطمئن بجنبي مضجع وكذا
لا يطمئن به مذ بنت مضجعه
ما كنت أحسب أن الدهر يفجعني
به ولا بي إلا الأيام تفجعه
حتى جرى الدهر فيما بيننا بيد
عسراء تمنعني حقي وتمنعه
وكنت من ريب دهري جازعاً غرفاً
فلم أوق الذي كنت أجزعه

بالله يا منزل القصر الذي درست
آثاره وعفت مذ بنت أربعه
هل الزمان معيد فيك لذتنا
أم الليالي التي أمضته ترجعه
في ذمة الله من أصبحت منزله
وجاد غيث على مضناك يمرعه
من عنده لي عهد لا يضيع كما
عندي له عهد صدق لا أضيعه
ومن يصدع قلبي ذكره وإذا
جرى على قلبه ذكري يصدعه
لأصبرن لدهر لا يمتعني
به ولا بي في حال يمتعه
علماً بأن اصطباري معقب فرجاً
فأضيق الأمر إن فكرت أوسعه
على الليالي التي أضنت بفرقتنا
جسمي ستجمعني يوماً وتجمعه
وان تغل أحداً منا منيته
لا بد في غده الثاني سيتبعه
وأن يدم أبداً هذا الفراق لنا
فما الذي بقضاء الله نصنعه

وكانت ابنتي تستمع إليّ وأنا أرتل هذه القصيدة فانتشت طرباً وأضاءت ثغرها بسمة لامعة ... وقالت :

— معك الحق ... انها رائعة وأجمل ما قرأت يا أماه ...

فتأملتها بحنان وتمتمت :

— رائعة .. ولكنك أنت أروع قصيدة قرأتها ، وأغنى حرف عرفته ...

أنت قصيدتي الخالدة وقيثارتي الشادية ولحني الأثير ...

« قلم التحرير »

قصة :

الله يمهل ... ولا يهمل

ليو تولستوي

ترجمة : عيسى فتوح

كان يقطن مدينة فلاديمير تاجر شاب ، اسمه ايفان اكسيونوف ، يملك دكانين وبيتاً خاصاً ، وكان لطيفاً ، أشقر الشعر ، مجعد الوجه ، أليفاً ، يحب المزاح ، ويغرم بالغناء ، استسلم للشراب وهو شاب ، وأمعن في التبذير والاسراف عندما امتلأ جيبه ، ولكنه بعد ان تزوج انقطع عن الشراب إلا من حين لآخر .

وفي صيف من الصيوف قرر أن يسافر إلى معرض « نزهني » ، وبينما هو يودع عائلته قالت له زوجته : « ايفان لا تسافر اليوم ، لأني رأيت حلماً مزعجاً يدور حولك » .

فضحك اكسيونوف وقال : « انك خائفة من ذهابي إلى المعرض .. دعيني أسافر مرحاً مسروراً » .

أجابت زوجته : « لست أدري ممّ أنا خائفة ، وكل ما أعرف أنني قد حلمت حلماً مزعجاً ، حلمت بك راجعاً من المدينة ، وعندما نزعت قبعتك ، رأيت أن شعرك أشيب تماماً » .

ضحك اكسيونوف وقال : « تلك اشارة حظ ترقبي ما اذا كنت لا أبيع كل بضاعتي ، وأحضرُ لك معي بعض الهدايا من المعرض ، وهكذا ودع عائلته وانطلق .

عند ما قطع نصف الطريق قابل تاجراً عرفه ، فباتا ليلتهما في فندق واحد ، وتناولا بعض الشاي سوية ، ثم ذهبا للنوم في غرفتين متجاورتين .

لم تكن من عادة اكسيونوف أن ينام متأخراً ، ورغبة منه في السفر ، والبردُ خفيف ، فقد أيقظ سائقه قبيل الفجر ، وطلب منه أن يهيء الأحصنة .

ثم مر بطريقه على صاحب الفندق (الذي يقطن كوخاً في المؤخرة) فدفع له قائمة الحساب ، واستأنف رحلته .

عندما قطع حوالي خمسة وعشرين ميلًا ، توقف ليطعمَ الأحصنة ، ويرتاح الى حين في سدفة الفندق ثم تقدم الى المصطبة ، وكيما يشعل الموقد ، أخذ قيثارته وابتدأ بالعزف .

فجأة مرت عربة تجرها ثلاثة خيول بأجراسها المجلجلة .. ترجل منها موظف يتبعه جنديان ، وتقدم من اكسيونوف ، وطفق يسأله عن هويته ، ومتى جاء ... أجابه اكسيونوف اجابة تامة ، ثم قال : « أتريد أن تتناول بعض الشاي معي ؟ » لكن الموظف قاطعه بالسؤال : « أين قضيت الليلة الماضية ؟ هل كنت وحيداً أو مع تاجر صديق ؟ هل رأيت تجاراً آخرين هذا الصباح؟ لماذا تركت الفندق قبيل الفجر ؟

دهش اكسيونوف من كثرة هذه الأسئلة ، لكنه شرح كل ما حدث وأضاف : « لماذا تقاطعني بالأسئلة كما لو كنتُ لصاً أو سارقاً ؟ انني مسافر من أجل أشغالي الخاصة ولا حاجة لتسألني » .

عندئذ استدعي الجنديين وقال : « انــــني موظف البوليس التابع لهذه المنطقة ، وأسألك هذا لأن التاجر الذي قضيت معه الليلة الماضية وجد مذبوحاً ، لذا يجب أن نفتش أمتعتك » .

دخل الجنديان وموظف البوليس البيت ، وفكوا أمتعة اكسيونوف وفتشوها ، وفجــــأة استل الموظف سكينا من الحقيبة وصاح : هي ذي سكينه .

نظر اكسيونوف فرأى سكيناً ملطخة بالدماء تؤخذ من حقيبته فأرتج عليه : « كيف جاءت الدماء إلى هذه السكين ؟ » .

حاول اكسيونوف أن يجيب ، لكنه استطاع أن يتفوه بصعوبة كلمة تقطعها اللعثمة : « أنا – لا أعرف – ليست لي » .

عندئذ قال موظف البوليس : « هـذا الصباح وجد التاجر في الفراش مذبوحـاً ، وانك الشخص الوحيد الذي به يشتبه ، ذلك لأن البيت وجد مقفلاً من الداخل ، وليس أي شخص هناك ، هي ذي السكين ملطخةً بالدماء في حقيبتك ، ووجهك وصفاتك كلها تدينك . أخبرني كيف قتلته وكم هو المبلغُ الذي سرقته منه ؟

أقسم اكسيونوف انه لم يقترف الجريـمة ، ولم ير التاجر بعد أن تناولا الشاي معاً ، وانه لا يملك من النقود غير ثمانية آلاف روبل تخصه ، وان السكين ليست له ، إلا أن صوته كان يبدو متهدجاً ووجهه شاحباً ، ويرتجف من الخوف كما لو أنـه هو المجرم بالذات .

أمر موظف البوليس الجنديين أن يوثقا اكسيونوف ويضعاه في العربة ، وحالما ربطا رجليه بعضهم ببعض رسم اشارة الصليب وبكى . . . جُرِّدمن بضاعته ونقوده ، وأرسل إلى أقرب مدينة ، حيث سجن هناك . وفي مدينة فلاديمير جُمعت المعلومات طبقاً لصفاته ، فقال التجار وباقي سكان المدينة : إنه في الأيام الماضـية اعتاد أن يشرب ويُضيع وقته ، ولكنه كان بالاضافة لذلك رجلاً طيباً وعندما انتهت المحاكمة تبين أنه كان متهماً بقتل تاجر من « ريازان » بعد أن سرق منــــه عشرين الف روبل .

لقد فقدت زوجته الأمل ، ولم تعرف أي الأخبار تصدق . . كان أطفاله كلهم صغاراً ، أحدُهم رضيع في حضنها ، اصطحبتهم جميعاً ، وجاءت بهم إلى المدينة ، حيث كان زوجها في السجن ، لم يُسْمَحْ لها أن تراه بادىء ذي بَدْء ، ولكن بعد رجاء كثير حصلت على إذن من الموظفين واقتيدت إليه . . . عندما رأت زوجها في لباس السجن أغمي عليها ولم تسترجع وعيها إلا بعد مضي وقت طويل ، عندئذ ضمت أطفالهـا إليها ، وجلست قربه ، أخبرته عن أمور البيت ، وسألته عما حدث بالتفصيل فأخبرها ، ثم سألته : « ماذا نستطيـع أن نعمل من أجلك الآن ؟ » . « يجب ان نلتمس القيصرَ كيلا يدع شخصاً بريئاً يَهلك » . فأجابته زوجته بأنها أرسلت طلب التماس إلى القيصر ، لكنه لم يقبل .

لم يُجبْ اكسيونوف ، إلا انه أطرق مغتماً ، قالت زوجته حينذاك : « لا شيء سوى انني رأيت في نومي ان شعرك انقلب أشيب ، أتتذكر ؟ وأنني نصحتك بالاقلاع عن السفر في ذلك اليوم ؟ » .

وبينما هي تمرر أصابعها خـــلال شعره قالت : « بحق « فانيا » الأعز ، أخبر زوجتك الصدق ، ألست أنت الذي فعلت ذلك ؟. « حتى أنت أيضاً تشتبهين بي »

قال اكسيونوف ذلك وهو يخبيء وجهه في راحتيه ، ثم بدأ يبكي ، فاقترب جندي ، وأمر بأن تبعد الزوجة والأطفال . عندئذ ودع اكسيونوف عائلته وداعاً لا لقاء بعده .

لما ذهب الجميع استعاد اكسيونوف ما قال ، وحينما تذكر أن زوجته أيضاً قد اشتبهت به قال في نفسه : « يبدو أن الله وحده يستطيع أن يعرف الصدق إليه وحده ـ جل جلاله ـ يجب أن أدعو ، ومنه وحده يجب أن أتوقع الرحمة » .

لم يكتب اكسيونوف أية طلبات من أجل العفو ، إنما سلم كل أمله ، وصلى إلى الله فقط .

حكم على اكسيونوف بان يجلد بعقدة حبل ويرسل إلى المناجم ، وعندما التأمت الجروح التي سببتها العقدة ، نفي إلى سيبيريا مع مجرمين آخرين .

عاش اكسيونوف ستة وعشرين عاماً كمجرم في سيبيريا ، انقلب شعره ابيض كالثلج ، ونمت لحيته طويلا نحيلة وشيباء ، كل فرحه ذهب ، انحنى ، صار يمشي ببطء ، ويتكلم قليلا ، ولا يضحك ، ولكنه يصلي غالباً .

تعلم اكسيونوف في السجن صناعة الاحذية ، وكسب دريهمات قليلة اشترى بها كتاب حياة القديسين » يقرؤه عندما يكون النور كافياً في السجن . وفي ايام الآحاد كان يقرأ منه فصولا في كنيسة السجن ويرتل مع الجوقة ، لان صوته كان في غاية الجمال .

لقد احب المسؤولون عن السجن اكسينوف لوداعته ، ولاحترامه السجناء من رفاقه حتى دعوه « الجد » و « القديس » فاذا رغبوا التماس المسؤولين عن السجن في اي شيء ، كانوا يجعلون اكسيونوف متكلمهم ، وعندما تنشب خصومة بين السجناء ، يأتون اليه ليصلح ذات البين ، ويعيدَ الحق الى نصابه .

لم تصل اكسيونوف اخبار جديدة عن البيت ، ولا يعرف حتى ما اذا كانت زوجته واطفاله لا يزالون على قيد الحياة . وصدف ان دخلت السجن يوماً عصابة من المجرمين ، وفي المساء جمع السجناءُ القدامى الوافدين الجدد حولهم ، وسألوهم عن المدينة او القرية التي جاءوا منها ، ولأي سبب جيء بهم ، وبين البقية الوافدين جلس اكسيونوف يصغي بظهر ذليل الى ما يقال .

كان أحدُ المجرمين الجدد طويلا ، قوياً ، في الستين من عمره ، ذا لحية شيباء مقلمة جيدا ، يحدّث الآخرين لماذا قبض عليه .

قال : حقا انكم اصدقاء طيبون . . . كل ما فعلت ايها الزملاء انني اخذت حصاناً كان مشدوداً الى مركبة ، فقبض علي ، واتهمت بالسرقة ، اعترفت لهم بانني اخذته لأصل البيتَ سريعاً ، ثم اطلقت سراحه ، بالاضافة الى ان السائق كان شخصاً صديقا لي ، الم افعل حسنا ؟ فاجابوا كلا ، لقد سرقته ، لكن كيف ومن اين سرقته ، هذا هو الذي ما استطاعوا ان يفسروه . مرة ارتكبت خطأ بالفعل ، وكان يجب حقا ان آتي الى هنا منذ امد بعيد ، لكنني في ذلك الوقت كنت متخفياً . والآن اتي بي الى السجن دون ذنب على الاطلاق ، ولا اكتمكم انني كنت سابقا في سيبيريا ، لكنني لم امكث طويلا .

من اين انت اذن ؟ سأل احدهم .

من فلاديمير ، وعائلتي توجد في تلك المدينة . « ما كّار » ، وهم يدعونني « سيميونيش » ايضاً . فرفع اكسيونوف رأسه وقال ؟ « قل لي ياسيميونيتش

هل تعرف شيئاً عن تجار اكيونوف من مدينة فلاديمير ، ايزالون على قيد الحياة ؟ .

أتعرفهم ؟ طبعاً اعرفهم ، ابناء اكسيونوف اغنياء بالرغم من ان والدهم في سيبيريا : مجرم مثلنا كما يبدو ، كم يشبهك ! الست هو ؟ كيف جئت الى هنا ؟ .

لم يشأ اكسيونوف ان يتحدث عن سوء حظه ، انما اشار قائلا : من أجل ذنوبي قضيت في السجن ستة وعشرين عاما .

أية ذنوب ؟ سأل ماكار سيميونيتش .

لكن اكسيونوف اكتفى بالقول : حسناً ،حسناً يجب أن أستحقه . ولم يقل أكثر ، إلا أن زملاءه أخبروا الوافد الجديد كيف نفي اكسيونوف إلى سيبيريا ، وكيف أن شخصاً قتل تاجراً ثم وضع السكين بين أمتعة اكسيونوف ، فحكم عليه حكماً جائراً .

عند ما سمع ماكار سيميونيتش هذا نظر إلى اكسيونوف ، لطم ركبته وصاح « حسناً ، ان هذا لمدهش مدهش حقاً . لكن كم مضى عليك هنا ؟

سأله الآخرون لماذا بدت عليه امارات الدهشة الكبيرة ، وأين رأى اكسيونوف من قبل ، بيد أن ماكار سيميونيتش لم يجب ، إنما اكتفى بالقول : إنه لمن المدهش أن أقابل هنا رفاقاً .

تلك الكلمات جعلت اكسيونوف يعجب مما إذا كان هذا الرجل يعرف من قتل التاجر ، ولذلك قال : ربما سمعت يا سيد سيميونيتش بتلك القضية . ألا يُحتمل انك رأيتني من قبل ؟ كيف أستطيع أن أساعدك بالاخبار ؟ العالم مملوء بالاشاعات ، لكنها اشاعات قديمة ، وقد نسيت ما سمعت » .

سأل اكسيونوف : « ربما سمعت بمن قتل التاجر ؟ »

ضحك ماكار سيميونيتش وأجاب : لقد وجدت السكين في حقيبته ، فإذا كان ثمة شخص آخر خبأها فيها ، فهو ليس بلص حتى يقبض عليه ويعترف بذلك . كيف يستطيع أي إنسان أن يضع سكيناً في حقيبتك بينما هي تحت رأسك ؟ بالتأكيد سيوقظك .

عندما سمع اكسيونوف هذا الكلام ، شعر يقيناً بأن هذا الرجل هو الذي قتل التاجر ، فنهض من مكانه وانطلق ، ولم ينم ليلئذ ، احس بالانزعاج والانقباض ، واستفاقت في ذهنه الوان شتى من الصور ، وعلى رأسها صورة زوجته عندما فارقها ليذهب الى معرض البيع ، رآها كما لو كانت حاضرة ، وجهها وعيناها امامه ، يسمع كلامها ويضحك ، ثم رأى أطفاله الصغار جداً كأنهم ماثلون في ذلك الحين : واحد يلفه برض صغير ، والآخر في حضن امه تذكر نفسه كما اعتاد ان يكون - شاباً ومتزوجاً ، تذكر كيف جلس يعزف القيثار في سدفة الفندق ، حيث قبض عليه ، وكيف كان خالياً من الهم ، تصور المكان الذي جلد فيه ، والجلادَ ، والناسَ من حوله ، السلاسل والمجرمين طوال ست وعشرين سنة من حياة سجنه ، وشيخوخته المبكرة . تفكيره بذلك كلّه جعله ناعساً شقياً ، ومستعداً لأن يقتل نفسه .

كل ذلك فعله هذا الوغد . فكر اكسيونوف واستشاط غضبه على ماكار سيميونيتش الذي اطال عليه الانتظار ، حتى اوشك هو نفسه ان يهلك بسببه .

حافظ على اعادة الصلاة كل ليلة ، لكنه ما استطاع ان لدخل الطمأنينة الى قلبه . كان خلال النهار لايقترب من ماكار سيميونيتش ، ولا ينظر اليه حتى مر اسبوعان على هذه الحال ، لم ينم اكسيونوف

خلالها ، وبلغ من البؤس حداً جعله يجهل ماذا يعمل .

وفي احدى الليالي ، بينما كان ماشياً حول السجن لاحظ بعض التراب يتدحرج من تحت أحد الرفوف التي ينام عليها السجناء ، وقف ليرى ماوراء ذلك ، وفجأة زحف ماكار سيميونيتش من تحت الرف ونظر الى اكسيونوف بوجه خائف حاول اكسيونوف ان يمر دون ان ينظر اليه ، لكن ماكار مسك يده ، وأخبره أنه حفر ثقباً تحت الجدار ، وليتخلص من التراب كان يضعه في فردتي « بوطه » ويفرغهما كل يوم على الطريق عندما يساق السجناء الى عملهم .

لاتحركْ ساكناً أيها الشيخ ، وستهربُ منه أنت أيضاً ، واذا أفشيتَ السرّ فسيجلدوني حتى الموت ، ولكنني سأقتلك أولا .

ارتجف اكسيونوف من الغضب حالما نظر الى عدوه ، وأشار بيده قائلًا : « ليست لي رغبة في الهرب ، ولا حاجةَ لتقتلني ، لقد قتلتني من قبل وما دام اخبرتني ذلك ، فأنا مخير بين أن أذيع السر أو لا ، حسبما يوجهني الله » .

في اليوم التالي ، عندما اقتيد المجرمون الى العمل ، لاحظ جنود الخَفَر أن واحداً أو آخر من السجناء أفرغ بعض التراب من فردتي « بوطه ، فـُتّشَ السجن ، فوجد النفق جاء مدير السجن وسأل السجناء كافة ليكتشف من حفر الثقب ، فانكروا جميعاً أي علم به ، وهؤلاء الذي يعرفون لن يخونوا ماكار سيميونيتش ليقينهم أنه لابد أن يجلد حتى الموت . وأخيراً التفت مدير السجن الى اكسيونوف الذي يعرفه رجلا عادلا وسأله :

انك شيخ صادق ، اخبرني ، قبل ان استحلفك بالله ، من حفر الثقب ؟

وقف ماكار سيميونيتش كما لو كان غير مهتم ابداً ، ونظر الى مدير السجن ، وبطرف عينه الى اكسيونوف . ارتجفت شفتا اكسيونوف ويداه ، ومضى وقت طويل قبل ان يستطيع التلفظ بكلمة واحدة ، فكر : « لماذا استرُ عليه وهو الذي دمر حياتي ؟ دعه يدفع ثمن ما تألمت ، لكنني اذ بحت بالسر فمن المحتمل ان يجلدوه حتى الموت ، ومن يدري فقد تكون شبهتي خاطئة ، وبعد هذا كله أيّ خير قدم لي ؟ » .

« حسناً أيها الشيخ ، أعاد مدير السجن ، قل لي الصدقَ ، من ذا الذي حفر تحت الجدار . ؟ رمق اكسيونوف ماكار سيميونيتش وقال : « وحقّ شرفك لا استطيع القول ، ليست وصية الله أن اخبر . افعل ماتشاءُ بي ، انني بين يديك » .

قلّب مدير السجن الامر على شتى وجوهه ، ومع ذلك لم يضف اكسيونوف على ماقال حرفاً واحداً وهكذا رُفعت القضية .

في تلك الليلة ، وعندما كان اكسيونوف مضطجعاً على فراشه ، والنعاس يغالب جفونه ، دلف شخص بهدوء ، وجلس فوق فراشه ، رمقه من خلال الظلمة ، فتبين له ان الشخص هو ماكار .

« ماذا تريد مني اكثر مما كان ؟ » سأل اكسيونوف « لماذا أتيت الى هنا ؟ » . سكت

ماكار سيميونيتش ، فنهض اكسيونوف وقال : ماذا تريد مني ؟ ابعد عني والا ادعو الحارس .

انحنى ماكار سيميونيتش فوق اكسيونوف حتى لامسه وهمس : « ايفان ديميتريتش سامحني » . من اجل ماذا ؟ سأل اكسيونوف .

« انني انا الذي قتلت التاجر ، وخبأتُ السكين بين أمتعتك ، وقصدت قتلك بالتالي ، لكنني سمعت ضجة في الخارج ، فخبأت السكين في حقيبتك ، وهربت من النافذة .

وجم اكسيونوف ولم يدر ماذا يقول ، انزلق ماكار سيميونيتش من على حافة السرير ، وركع على الارض . وقال : « ايفان ديميتريتش . سامحني ، بحق الله ، سامحني ، سأعترف بأنني أنا الذي قتلت التاجر ، وأنت سيطلق سراحك ، وتذهبُ الى بيتك » .

قال اكسيونوف : « من السهل عليك أن تتكلم ، لكنني قد قاسيت من اجلك هذه السنوات الستّ والعشرين ، اين استطيع الذهاب الآن ؟.. زوجتي ماتت ، واولادي نسوَني ، ليس لي مكان التجيء اليه . . » .

أطرق ماكار سيميونيتش ، ثم لطم رأسه بارض الغرفة وصاح : « ايفان ديميتريتش . سامحني بحق الله سامحني ... عندما جلدت بعقدة الحبل ، لم يكن ذلك أقسى علي من رؤيتك الآن ... ومع ذلك أسبغ شفقتك علي ، ولا تخبر أحداً ، اكراماً لله سامحني ، تعس أنا ... وطفق ينشج .

عندما سمعه اكسيونوف ينشج ، بدأ هو بالنشيج أيضاً وقال : الله يسامحك . قد أكون اسوأ حالا منك مئة مرة ... لقد أضاءت قلبه هذه الكلمات ، فجفاه الشوق للبيت ، ولم تعد عنده أية رغبة في مغادرة السجن ، بل صار كل أمله أن يعود اليه ولو في ساعته الأخيرة .

وبالرغم مما قاله اكسيونوف ، فقد اعترف ماكار سيميونيتش بذنبه ، ولكن عندما ، صدر قرار العفو عن اكسيونوف ، كانت المنية هي السباقة اليه .

* * *

للقاضي عياض

رأت قمر السماء فذكرتني
ليالي وصلها بالرقمين
كلانا ناظر قمراً ولكن
رأيت بعينها ورأت بعيني

تراثنا الماضي

تركت الاغاني دون وداع أو اعتذار ... ماذا أصنع (والجاحظ) عاتب غاضب .. كيف صاحبت الاصفهاني ورحلت معه ... اخبرته ان الاغاني سحرتني بوفرة اعدادها وشيق أخبارها وحلو أحداثها ... فلم يستمع الي .. توسلت اليه أن يصفح عبثا .. جلست بجانبه أحادثه وأداعبه وأروي له أحداثه فكان يستمع الي تارة ويهملني أخرى ويتحرك بجسده الكبير ووجهه ... لا لن أقول شيئا فالأبي عثمان فضل علي كبير ... انه استاذي ورفيقي وسبب نجاحي. فمعرفتي لبيانه شفعت بي لدى أساتذتي وأكسبتني منحة مجانية ، ونوادره أضحكتني مزنا طويلا ، ومع ذلك أتركه وأرحل مع أبي الفرج . لا هذا لن يكون ..

فلملمت اوراقي وقطعت رحلتي وتبعته فهو انساني المفضل الذي عشت واياه أياما وأياما وأشهروسنوات، ألجأ اليه كلما نأت بي الدروب فيأخذني برفق ويسرد علي نوادر بخلائه وأحداثهم فأنسى نفسي وضياعي وأنحرف في الضحك والمتعة وتمضي الساعات وأنا معه ناسية طعامي ومواعيدي وعملي ومرضي ، أسأله فيجيب، أطلب منه العون فيلبي ويقف الى جانبي (كالجبل) يحميني يدافع عني يدفعني للنجاح ...

ورضي أخيرا واصطحبني لزيارة بخلائه الاعزاء ، يريد أن يتفقدهم ويعرف كيف يعيشون وماذا حل بهم.. فضحكت بخبث وهمست باذنه الكبيرة :

اطمئن انهم خالدون وكل مسمر في مكانه ..

رحلتنا اليوم اذن مع البخلاء .. الكتاب الذي ملأ الدنيا وشغل الناس وكان حديث المنتديات والنقاد زمنا طويلا ..

لنرى كيف تقصى أبو عثمان أخبار البخلاء وعاداتهم وتعاليمهم ويعرض منطقهم وحججهم كل ذلك باسلوب هزلي شيق خال من الوعظ والجزر والذم وبطريقة لم يسبقه ولم يلحقه فيها غيره ... فلنستمع معا الى هذا الخبر ...

وزعم أصحابنا أن خراسانية ترافقوا في منزل وصبروا عن الارتفاق بالمصباح ما أمكن الصبر ثم انهم تناهدوا(1) وتخارجوا ، وأبى واحد منهم أن يعينهم ، وأن يدخل في العزم معهم ، فكانوا اذا جاء المصباح شدوا عينيه بمنديل ولايزال ولا يزالون كذلك الى أن يناموا ويطفئوا المصباح ، فاذا أطفؤوه أطلقوا عينيه ..

اني كلما قرأت هذه الحادثة لا أملك نفسي من الضحك ، واتساءل من أشد بخلا .. الانسان الذي أبى أن يسهم بحبة الزيت ورضي أن تعصب عيناه طوال الليل أم صحبه الذين أبوا عليه أن يستفيد من ضوئهم.. ولنترك الضوء الخافت والانسان المعصوب العينين ولنستمع الى أبي عثمان يحدثنا عن بخل أهل مرو ...

وذلك أن رجلا من أهل مرو كان لا يزال يمج ويتجر وينزل على رجل من أهل العراق فيكرمه ويكفيه مؤنته ثم كان كثيرا ما يقول لذلك العراقي : ليت اني قد رأيتك بمرو حتى اكافئك لقديم احسانك وما تجدد لي من أيد في كل خدمة . فأما ههنا فقد أغناك الله عني. قال : فوفيت لذلك العراقي بعد دهر طويل حاجة في تلك الناحية فكان مما هوّن عليه مكابدة السفر

---

(1) أخرج كل واحد منهم نفقة بقدر نفقة صاحبه ليشتروا بها طعاما يشتركون في أكله وتخارجوا بمعنى واحد .

ووحشة الاغتراب فكان الحروزي هناك فلما قدم معنى نحوه في ثياب سفره وفي عمامته وقلنسوته وكسائه ليحط رحله عنده كما يصنع الرجل بثقته وموضع انسه فلما وجده قاعدا في أصحابه أكب عليه وعانقه فلم اثبته[1] ولا سأل به سؤال من رآه قط .. قال العراقي في نفسه لعل انكاره أياي لمكان القناع . فرمى بقناعه . وابتدأ مساءلته فكان له أنكر . فقال : لعله ان يكون انما أوتى من قبل العمامة ُمقرعها ثم انتسب وجدد ُمساءلته فوجده أشد ما يكون انكاراً . فقال : فلعله انما اوتى من قبل القلنسوة ، وعلم المروزي انه لم يبق شيء يتعلق به المتغافل والمتجاهل . قال: لو خرجت من جلدك لم أعرفك ..

وكيف يعرفه وهو بلده اشتهر اهلها بالبخل . ولنضفي الى أبي عثمان ، كيف يصف سلوك البخلاء وصفاً حركياً عضوياً ..

«وما ظنكم برجل نهش بضعة لحم تعرقاً فبلع مفرسه وهو لا يعلم . . وكان إذا أكل ذهب عقله ، وجحظت عينه ص ١٤٨ وسكر وسدر وانبهر[2] وتربد وجهه وغضب ولم يبصر .

ولم يفجأني وأنا آكل تمراً الا استفّه سفا ومساه مسوا ، وذرا به ذروا ، ولا وجده كثيراً إلا وتناول القصعة كجحجحة الثور ، ثم يأخذ بحفنيها ويقلها من الأرض من الأرض ، ثم لا يزال ينهشها طولاً وعرضاً ورفعاً وخفضاً ، حتى يأتي عليها جميعاً ، ثم لا يقع غضبه إلا على الانصاف والاثلاث ، ولم يفصل تمرة قط من تمرة . وكان صاحب جمل . ولم يكن يرضى بالتعاريف ولا رمى بنواة قط ، ولا نزع

(١) أي عرفه حق المعرفة .

(٢) سدر بصره ؛ اذا غير فلم يحسن الادراك فتكلم سادراً على متنبت في كلامه .

قمعاً ، ولا نفى قشراً ، ولا فتشه مخافة السوس والدود .. ثم ما رأيته قط إلا وكأنه طالب ثأر وشمشهان صاحب كائله وكأنه عاشق فعتلم ، أو جائع مقرور» ..

انها صور رائعة ، فيها دقة ومهارة وكل ما يحويه الفن الهزلي من دعابة وحركة .. ولندع الوصف ونعود الى القصص الطويفة المنتثرة في صفحات الكتاب ولنرى معاً كيف يتعرف هذا البخيل ولنستمع اليه يغمد ساعة نفسه .

«وكان ابو يعقوب الذقنان يقول : ما فاتني اللحم منذ ملكت المال . وكان اذا كان يوم الجمعة اشترى لحم بقر بدرهم واشترى بصلاً بدانق وبانجانا بدانق وقرعة بدانق ، فإذا كان أيام الجزر فجزراً بدانق ، وطبخه كله سكباجا فأكل وعياله يومئذ خبزهم شيء من رأس القدر ، وما ينقطع في القدر من البصل والباذنجان والجزر ، والقرع والشحم واللحم ، فاذا كان يوم السبت تردّوا خبزهم في الحرق) فاذا كان يوم الاحد أكلوا البصل ، فاذا كان يوم الاثنين أكلوا الجزر ، فاذا كان يوم الثلاثاء أكلوا القرع ، فاذا يوم الاربعاء أكلوا الباذنجان ، فاذا كان يوم الخميس أكلوا اللحم ، فلهذا كان يقول : ما فاتني اللحم منذ ملكت المال»

وهكذا نراه يوهمناه أنه يأكل اللحم طوال الاسبوع .

لندع الطرائف ونرى كيف يعطينا أبا عثمان صوراً (كاركاتورية) لمثل البخلاء والمشعوزين منهم ، لم نسمع بأطرف منها .

«المحظراني الذي يأتيك في زي ناسك ، ويريك أن بابك[1] قد قور لسانه من أصله لأنه كان مؤذناً هناك ، ثم يفتح فاه كما يصنع من يتثاءب فلا ترى له

(١) اي يوهمك بأن بابك ان يلي الخارج على الخليفة قد انتزع لسانه .

لساناً البتة ، ولسانه في الحقيقة كلسان الثور ، وأنا أحدق بذلك ولا بد للمحظراتي أن يكون معه واحد يعبر عنه أو لوح أو قرطاس قد كتب منه شأنه وقصته .

والمستعرض : الذي يعارضك وهو ذو هيأة وفي ثياب صالحة وكأنه قد مات من الحياء ويخاف أن يراه معرفة ، ثم يعترضك اعتراضاً ويكلمك خفياً»

وربما وجدنا حولنا اكثر من بخيل ومستعوذ يلجأ الى هذه الحيل .

كما ان ابا عثمان يجعل البخيل سفسطائياً يدافع عن الفكرة ونقيضها . . إذا كان هذا يوصله الى هدفه وهو تمجيد البخل ، وكأنني به عالم نفسي يستعمل منطق العواطف ، فالنتيجة معروفة مسبقاً ويسوق كل البراهين التي توصل اليها .

(فإنه قال « والله إن أروى من الماء وما أظن أن في الدنيا أحداً أشرب مني للماء » قال « لابد للتراب من ماء ولا بد للطين من ماء يبله ويرويه أوليست الحاجة على قدر كثرته وقلته والله لوشربت ماء الفرات ما استكثرته لك مع ما أدى من شده أكلك وعظيم لقمتك ، تدري ما قد تصنع ؟ أنت والله تلعب . أنت لست ترى نفسك ، فسل عنك من يصدقك ، حتى تعلم أن ماء دجلة يقصر عما في جوفك » ، فان قال « ماشربت اليوم ماء البتة وما شربت أمس بمقدار نصف رطل ، وما في الأرض إنسان أقل شرباً مني للماء » قال « لأنك لا تدع لشرب الماء موضعاً ولأنك تكنز في جوفك كنزاً لا يجد الماء معه مدخلاً ، والعجب لا تتخم لأن من لا يشرب الماء على الخوان ، لا يدري مقدار ما أكل ومن جاوز مقدار الكفاية كان حرياً للتخمة »

وهذا احد بخلائه يحبذ صفة البخل ويدافع عنها ويفضلها على الكرم ..

« وقلت له مرة قد رضيت بأن يقال (ص ١١٧)

عبد الله بخيل قال : لا اعدمني الله هذا الاسم ! قلت : وكيف ؟ قال : لأنه[1] لا ينال فلان بخيل إلا وهو ذو مال ! فسلم إليّ المال ، وادعني بأي اسم شئت ! قلت : ولا ينال ايضاً فلان سخي ، إلا وهو ذو مال . فقد جمع هذا الاسم الحمد والمال واسم البخل لجمع المال والذم ، فقد اخترت أخسهما واوضعهما . قال : وبينهما فرق ! قلت ضخامته ! قال : في قولهم بخيل تثبيت لاقامه المال في ملكه ، وفي قولهم سخي ، اخبار عن خروج المال من ملكه ، واسم البخيل اسم فيه حفظ وذم ، واسم السخي اسم فيه تضييع وحق ! والمال زاهر نافع مكرم لأهله معنى . والحق ريح وسخرية ، واستماعك له ضعف وفسولة ، وما أقل عناء الحمد — والله — عنه إذا جاع بطنه ، وعرى جلده ، ومناع عياله ، وشمت به من كان يحسده » .

ثم يسمعنا مواعظ البخلاء لابنائهم ..

قال ابو عبد الرحمن لابنه :

«اي بني إن إنفاق القراريط بفتح عليك ابواب الدوانيق ، وانفاق الدوانيق يفتح عليك ابواب الدراهم ، وانفاق الدراهم يفتح عليك ابواب الدنانير ، والعشرات تفتح عليك ابواب الميئن ، والمئون تفتح عليك ابواب الألوف ، حتى يأتي ذلك على الفرع والأصل ، ويطمس على العين والأثر ، ويحتمل القليل والكثير أي بني ! إنما صار تأويل الدرهم « دار الهم » وتأويل الدينار « يدني إلى النار » الدرهم إذا خرج الى غير خلف ، والى غير بَدَل دار الهم على دوافعه مخرجة . وقيل إن الدينار « يدني الى النار » لأنه إذا أنفقته في غير خلف ، وأخرج الى غير بدل بقي مخفقاً معدماً ، وفقيراً مبلطاً ، فيخرج الخارج ، ويدعو الضرورة الى المكاسب الرديئة ، والطعم الخبيثة ، والخبيث من الكسب يسقط من العدالة ، ويذهب بالمروءة ويوجب المد ويدخل النار ، أي بني عوّد

(١) زائدة من عيون الاخبار .

نفسك الأثرة ومجاهدة الهوى والشهوة ولا تنهش نهش الأفاعي ، ولا تخضم خضم البهاذين ولا تدم الأكل أدامة النعاج ولا تلقم لقم الجمال .

أي بني قد بلغت تسعين عاماً ما نقص لي سن ، ولا تحرك لي عظم ، ولا انتشر لي عصب ولا عرفت دنين أذن ، (ولا كف أنف) ولا سيلان عين ، ولا سلس بول « ر » ما لذلك علة إلا التخفيف من الزاد ، فإن كنت تحب الحياة ، فهذه سبيل الحياة ، وإن كنت تحب الموت فلا يبعد الله إلا من ظلم » .

وقبل أن نودع بخلاء الجاحظ لنضحك مع هذه الصورة .

« وكان عندنا رجل من بني أسد (ص ٢٥٣) إذا صعد ابن الأكار الى نخلة له ليلقط له رطباً ، ملأ فاه ماء ، فسخروا به وقالوا له : إنه يشربه ، ويأكل شيئاً على النخلة ، فإذا أراد أن ينزل ، بال في يده ثم أمسكه في فيه ، والرطب أهون على أولاد الأكرة وعلى أولاد غير الأكرة ، من أن يحتمل أحد شطر هذا المكروه ، ولا بعضه ، قال: فكان بعدها يملأ فاه من ماء أصفر ، أو أحمر ، أو أخضر لكيلا يقدر على مثله في رؤوس النخل » .

وذروة البخل في كتاب أبي عثمان وزعيم بخلائه برأي الذي ننقل خبره ..

« وحديث سمعناه على وجه الدهر (ص ٢٤٩) زعموا أن رجلاً قد بلغ في البخل غايته ، وصار إماماً ، وإنه كان إذا صار في يده الدرهم ، وخاطبه وناجاه وفدّاه[1] واستبطنه ، وكان مما يقول له : « كم من أرض قد قطعت وكم من كيس قد فارقت وكم من خامل قد رفعت . ومن رفيع قد أخملت . لك عندي أن لا تعرى ولا تغمى » ثم يلقيه في كيسه ويقول « اسكن على اسم الله في مكان لا تهان ولا تذل ولا تزعج منه » وانه لم يدخل فيه درهماً قط فأخرجه ...

وإن أهله ألحوا عليه في شهوة . وأكثروا عليه في إنفاق درهم فداءعهم ما أمكن ذلك . ثم حمل درهماً فقط ، فبينا هو ذاهب إذ رأى حواء قد أرسل على نفسه أخفى لدرهم يأخذه . فقال في نفسه : اتلف شيئاً تبذل فيه النفوس بأكلة أو شربة ؟ والله ما هذا إلا موعظة لي من الله ، فرجع الى أهله ورد الدرهم الى كيسه ، فكان أهله منه في بلاء وكانوا يتمنون موته . والخلاص منه بالموت .

فلما مات وظنوا أنهم قد استراحوا منه ، قدم ابنه فاستولى على ماله وداره ، ثم قال : « ما كان أدْم أبي ؟ فإن أكثر الفساد إنما يكون في الأدم : قالوا : « كان يتأدم بجبنة عنده » قال : « أرونيها » فإذا فيها حز كالجدول من أثر مسح اللقمة قال : « ما هذه الحفرة » ؟ قالوا : « كان لا يقطع الجبن وإنما كان يمسح على ظهره . فيحفر كما ترى » قال : « بهذا أهلكني وبهذا أقعدني هذا المقعد ، لو علمت ذلك ما صليت عليه » قالوا : « فأنت كيف تريد أن تصنع ؟ » قال « أضعها من بعيد فأشير عليها باللقمة » .

(وبعد ان استمعت الى هذه القصة تصورت قطعة الجبن وفيها خط عميق والابن حزين على افراط أبيه) ويمرر قطعة الخبز من فوقها خوف نقصانها أو ازعاجها ... أغرقت بالضحك ، فوجدت أبا عثمان يقهقه .. فقلت له ...

أتأكدت أن بخلاءك خالدون وسيطرب لنوادرهم الجيل بعد الجيل .. وأعتذر منك عن اتمام الرحلة لضيق المكان والوقت ، وإني أعدك أن أتفقدهم بين حين وآخر ...

وودعت أبا عثمان على أمل لقياه في رحلات قادمة ..

« قلم التحرير »

(١) أي قال له : جعلت فداءك

النبيذ والشهد

شعر : فريد انطونيوس

أحببتُ حتىَّ مضَّنى وجدي   وسهرتُ حتىّ ملّني سهدي

أحببتُ من عينيــك لونهما   ورضيتُ من عينيك بالوعـد

وأحبُّ من شفتيك طعمهما   طعم النّبيذ ونكهــة الشّهد

نهداك كم أهوى غرورهما   طفلان يرتجفان من برد

يتواثبان صبابةً وجوىً   ويمرّغان مساكب الورد

وطويل شعرك ملَّ عقدته   لا تأسريه ، أأسره يجـدي ؟

أرخي الجدائل ذقت لوعتها   لا ، لا ، دعي ، سأفكّها بيدي

ولتنسكب أبداً خيوط غوىً   ألهو بها وأشّها وجدي

فأنا أسير هوى يعذبني   قيد أعاني ظلمه وحـدي

قد صنت في قلبي وفي هدبي   عهد الحبيب ولم يصن عهدي

أنا كالجدائل بانتظار يدٍ   تحنو ، تحطّم قيدي الأبدي

ثـــلاث معجزات في الفـــن

بقلم : غازي الخالدي

مايكل انجلو متهم !

الفنان الذي لم يعرف التاريخ مثله ... يقف نقاد الفن لاتهامه بتهمة قد لا تخطر على البال ... وقد لا توجه الى أي انسان عادي .

مايكل انجلو في قفص الاتهام ... وأصابع كثيرة من النقاد والفنانين ورواد الفن تتجه اليه بقوة مؤكدة أنه هو الذي ضيع الفن والفنانين !

ولماذا لايتهم مايكل أنجلو وهو أحد ثلاث معجزات فنية ظهرت خلال التاريخ ؟

أما المعجزة الأولى فهي عبقرية الفنان البدائي في العصر الحجري في رسومه على جدران الكهوف مثل التاميرا في اسبانيا ، حيث يعجز إنسان القرن العشرين عن رسم لوحة تشبه (خوار البيسون) أو لوحة تشبه مجموعة كهف (فون دي جوم) على مقربة من ليزيزي في اقليم دور دوني بجنوب فرنسا [1] . حيث النسب الرشيقة جداً والحركات الجميلة حقاً ، والخطوط الانسيابية التي يعجز عنها فنان هذا القرن الذي نعيش فيه .

وفي تاريخنا الحديث نشأت أنماط في التصوير الحديث تمت الى الجماعات المختلفة بأوثق صلة ، بل لقد غادر بعض الفنانين عواصم أوربا الحديثة الى المناطق البعيدة حيث يعيش سكانها بوسائلهم الفطرية على نحو يقرب من حياة البدائيين الأولين ومن هؤلاء (كريفوه) الذي وجه الانظار الى فن أمريكا الجنوبية وفن البوشمان بجنوب أفريقيا ، و (هيوم نيسيت) الذي نقل أنماط غينيا الجديدة الى أوربا ، والمثال الالماني (أرنست بارلاخ) الذي تأثرت أعماله بالتماثيل الافريقية فضلاً عن (جوجان) و (بيكاسو) اللذين درسا الفن الفطري على نطاق واسع ونشرا مبادئه في العصر الحديث [2] .

والفن البدائي في الواقع هو فن يجمع بين البساطة والسذاجة في الخطوط والعلاقات التشكيلية والغنى بالاحساس في تعبيره عن الجمال مع نسب تكاد تكون معجزة بالنسبة لقربها الواقع وانسياب علاقاتها .

ولا يمكن على رأي النقاد أن يكون الفن هو هدف الانسان البدائي الأول من تلك الرسوم ولكن له مبرراته الدينية والسحرية وعلى رأي بعض النقاد والمؤرخين أن سبب هذه الرسوم البدائية في الكهوف كان من أجل غرض نفعي كالصيد مثلاً أو الزراعة

(١) راجع (تاريخ العالم) للسير جون هامرتين المجلد الأول .

(٢) راجع (قصة الفن التشكيلي) لعزة مصطفى منشورات دار المعارف .

ولكن بشكل غير مباشر .

ونحن هنا لا يهمنا إلا السبب الآتي التي دعت الانسان البدائي الأول الى تلك الرسوم بقدر ما تهمنا كنتيجة قائمة أمامنا من حيث قيمتها الفنية التي اعترف بها كبار الفنانين والنقاد والمؤرخين .

وعلى هذا الأساس نرى الفن البدائي فناً واقعياً بلا شك ، مأخوذاً من الواقع ومعبراً عن جانب من جوانب ذلك الواقـع ، بوحدات من الطبيعـة المرئية أمامه

وتندمج على رأي بعض المؤرخين في الصفـة الواقعية عند البدائيين صفة رمزية تارة وتجريدية تارة أخرى . والرمزية التي يقصدونها هي رسوم الحيوانات التي ترمز الى الحرب أو الى الصيد أو الى مآرب أخرى سحرية أو دينية .

أما التجريدية وهي الصفة الثـانية للفن البدائي فهي تلك الوحدات الزخرفية التي ينشؤها البدائيون في الأقمشة أو أبسطة الحصير أو ينقشونها على أعمال الفخار [1] .

إن الفطرة هي العامل المشترك بين الفنان البدائي وبين فن الطفل في المتخلّفين عقلياً .

من هنا تبدو المعجزة في قيمة الفن البـدائي عندما يقارن ببساطته وفطرته وعفويته مع الفن المعاصر الذي نعيشه نحن في هذا القرن العلمي حيث يمتزج الفن بالفلسفة وعلم النفس بالأدب والعلم .

أما المعجزة الثانية فهي عبقرية مايكل انجلو .

إن نظرة واحدة الى أعمال هذا الفنان في التصوير في قبوة السكستين أو في أعمال النحت الفريدة من نوعها في العالم مثل تمثال موسى وداود و (الشفقة) وتماثيل مقابر عائلة ميدتشي .

ندرك تماماً مدى إعجاز هذا الرجل .. أمـا الاتهام الموجه اليه فهذا ما سنأتي على ذكره فيما بعد ، وحتى نعطيه بعض حقه لا بد من وقفة سريعة عند ميزات فنه .

ومن خلال أعماله في قبوة السكستسن . ومقابر ميديتشي والعـائلة المقدسة وداود وموسى والشفقة والأسرى التي عرفت واشتهرت في جميع أنحاء العالم كتصوير وكنت نستطيع أن نحدد بعض الميزات الفنية الهامة .

بالنسبة الى قبوة السكستين في معبد قديم خاص برجال الدين بني في الفاتيكان عام ٤٧٤ على يد المهندس فلوريتنين ، طول المعبد ١٣٣ قدمـاً ، عرضه ٤٣ قدماً ، وارتفاعه ٨٥ قدماً ، وسقفه على شكل محدب بشكل مقطعه قطاعاً لدائرة وفي صدر المعبد جدار كبير يشغل حوالي ٣٥٠٠ قدماً مربعاً .

كلف مايكل أنجلو من قبل البابا يوليوس الثاني لعمل قصة الدينونة وتزين سقف المعبد بقصة الخلق والكون والانسان ، وكان المقصود لهذا العمل إحراج مايكل انجلو باعتباره مثالاً ولم يعرف كمصور بعد ، فأوعز بعض الفنانين ممن يحسدونه ويغارون منه الى البابا ليكلفه بتصوير السقف والجدار الأمامي للمعبد .

واعتذر مايكل انجلو واعترف بينه وبين نفسه من بداية العمل بالفشل وقـال : أنا مايكل أنجلو أعترف لفشلي كمصور والتصوير ليس عملي ، أنا نحات ولا أصلح للتصوير على الجدران .

وأصر مايكل أنجلو أن يقوم بهذا العمل رفائيل

(١) راجع كتاب (الخط الخارجي للفن) تأليف وليم هورين .

باعتباره الرسام المعاصر وأبو تتشلي ولكن البابا أصر على مايكل أنجلو .

وبدأ مايكل أنجلو معجزته الخارقة ، وصعد على الأعمدة الخشبية التي نصبت خصيصاً له ليصل الى السقف ، ويبدأ يرسم وهو مستلق على ظهره ، ثلاث سنوات كاملة يرسم بلا انقطاع ، وقد أغلق باب المعبد عليه حتى لا يراه أحد كأنه هو أول المتعبدين للفن والإله .

كان يرسم الدراسات لكل صغيرة وكبيرة التي تعد بالآلاف ، ثم يهذب ويغير ويبدل وأخيراً يجمع هذه الدراسات ويحملها معه الى السقف ثم يعود بها الى الأرض ... يرسم ويلون ويعيد ويشطب ... علماً بأن الخامة التي بين يده هي (الفريسك) وهي خامة صعبة من أصعب المواد المعمارية التي تستعمل في الفن لأنها تحتاج الى مهارة وسرعة قبل أن تجف وحتى لا يتغير اللون من يوم لآخر باعتبار أن قوامها الماء والكلس .

وفجأة يسقط هذا العملاق من أعلى السقف الى أرض المعبد فيقول وكأنه استشعر بداية الكارثة :

(إنني أعيش هنا وكلي شعور بالقنوط والاعياء ، ليس لي أي صديق يسأل عني ، وليست لدى الفرصة لآكل ما يسد رمقي[1] .

أما الأعمال التي قام بها في المعبد فتقسم الى قسمين : — السقف ، ثم الجدار الكبير الذي يحتل مكان الصدارة من المعبد أما السقف ففيه تسع لوحات عن : الطوفان ، الخطيئة الأولى والطرد من الجنة ، خلق آدم ، للفصل بين الشمس والقمر ، سكر نوح ، تضحية نوح ، خلق حواء إلاه يفصل بين البر والبحر .

هــذه اللوحات متصلة بشكل عرضي تشكل بمجموعها وحدة زخرفية متماسكة مرتبطة مع زوايا السقف وجدران المعبد بمثلثــات هندسية وأشكال معمارية بوقت واحد بحيث تشعر وأنت تنظر الى السقف كأنه محمول على تماثيل جانبية وقواعد معمارية تحت كل نافذة على الطرفين ، وهذه الصور التي تبدو كالتماثيل هي للأنبياء والقديسين ، رسمها مايكل أنجلو ليعطي السقف أهمية بالغة ، وليبرز أيضاً خبرة معمارية فائقة في هذا الحل التشكيلي البديع الذي قدمه ليصل بين السقف والجدران .

أما اللوحة الجدارية في صدر المعبد فهي ملحمة بشرية درامية رائعة مثلت أروع مأساة يمر بها الانسان بعد مماته .

(الدينونة ، أو الحساب الأخير) : ونمثل السيد المسيح في صدر اللوحة وفي أبرز مكان فيها يقف شاب مفتول العضلات برجولة كاسرة رافعاً يده اليمنى يلعن بها الأشرار ، وتحت يمينه تركع العذراء بخشوع وبحركة فيها الكثير من الحياء والخفر .

وجميع ما في اللوحة من كتل بشرية مرتبطة بنفس الفكرة وموزعة على أربع حزم بشرية من الأعلى الى الأسفل .

الحزمة الأولى : آلات التعذيب ويحملها القديسون وكذلك الصليب الذي صلب عليه المسيح .

الحزمة الثانية : المسيح والعــذراء والرجال الأخيار .

الحزمة الثالثة : عن يمين المسيح رسم مايكل

(١) راجع كتاب (مايكل أنجلو — حياته وفنه في قبوة سكستين) تأليف مرغريت سالنجر باريز .

أنجلو الرجال الأخيار وهم في صعودهم الى النعيم ، وعلى يسار المسيح الأشرار وهم ينزلون الى الدرك الأسفل وبئس المصير حيث تنتظرهم نار الجحيم .

الحزمة الرابعة : الجحيم ببؤسه وبشاعته كما يتصوره مايكل أنجلو .

وجميع هذه المخلوقات البشرية تدور في فلك واحد هو الخير والشر ، أما الخير فيمثله المسيح والعذراء والكهنة والرجال الأخيار الذين قدّموا أعمالاً طيبة أثناء حياتهم ، والشر يمثله ابليس وزبانيته وأتباعه ممن كانت لهم أفعالاً شريرة في حياتهم .

وبعد ، ماذا نجد في هذين العملين الفنيين من قيم فنية إذا نظرنا اليهما نظرة تشكيلية بحتة دون اعتبارهما عرضاً لقصة دينية ؟

١ – أول انطباع يمكن أن يشعر به الانسان أمام هذا العمل الفني الجبار هو الطابع المفجع الأليم الذي يحيط بالمأساة بشكل واضح سواء في الوجوه أو الحركات ، أو التكوين ، أو الألوان ، وهذا ما قاله البابا يوليس الثاني : إنه عمل مضني ومفجع .

وبالإضافة إلى الظاهرة الدرامية فإن فيها ظاهرة أخرى هامة وهي الجبروت والعظمة في تحريك الانسان وإظهار قوته في رسمه للسيد المسيح مثلاً ، والأخيار ومقابلة ذلك الأشرار في أوضاع مريعة لا إنسانية

٢ – تطوير الحركات الطبيعية للانسان الى حركات صعبة ومواقف شاذة خاصة في رسمه للأخيار وهم يصعدون الى جنة النعيم نراهم يتحركون في صعود بشكل لولبي ونلاحظ الحركة في وضع الجسم بالنسبة للمنظور فيرى وكأنه يدور حول نفسه صاعداً في علو .

٣ – ظهور مبادىء الفلسفة الاغريقية القديمة في أعماله وهي (القوة والجمال) حتى قيل في هذا :

(لو أن الإله قرر أن يظهر في مكان ما في الأرض ما كان له أن يظهر أكثر وضوحاً من جسم الانسان) [١] .

٤ – قوة التنفيذ الى جانب قوة التعبير وأصالته ، رغم الصعوبات التي واجهته من حيث صعوبة الاضاءة والطريقة التي رسم بها السقف كانت صعبة جداً ومرهقة ، وقد تركت في جسمه عاهة رافقته حتى الموت ، عام ١٥٦٤ وعاش حوالي ٩٠ عاماً .

٥ – التضاد في أعماله حيث نرى الوحشية والقوة والجبروت الى جانب المثالية والروحية والرقة والوداعة اللامتناهية كما وجدنا في تصويره المسيح والى جانبه العذراء الرقيقة التي تفيض عذوبة وحناناً .

٦ – ربط الشكل المعماري بالعمل الفني التشكيلي ، وهي طريقة اغريقية قديمة معروفة كما في إحدى معابد اليونان القديمة المسماة (الحاملات) حيث يستعمل النحت كعمود معماري في البناء ، وهذا ما أوضحته في شرح عملية ادخال العمارة في التصوير عندما رسم سقف المعبد وربطه مع جدرانه بزوايا ثلاثية معمارية ، وبرسمه الأشخاص من زوايا متعددة يجلسون على قواعد معمارية وكأنهم يحملون السقف بتلك القواعد والمثلثات الجانبية ، وهذا يدل على خبراته المعمارية التي عرف بها .

٧ – البعد الثالث ومدى أهمية العمق وفي تحريك أشخاصه على اللوحة ، وهذا نتيجة اهتمامه وقوته بالنحت كما نعرف من تماثيله المشهورة – موسى ، داود والشفقة والأسرى – .

٨ – تجسيم (الفورم) أي الشكل وتكتيله ومعالجة الظل النور بفهم تشريحي طبي عميق في رسوم الانسان خاصة في اختياره الأوضاع الصعبة الشاذة كما رأينا في تماثيله في مقابر عائلة ميدتتشي وداو ،

---

(١) نفس المرجع (مايكل أنجلو حياته وفنه في معبد السكستين) .

وصورة آدم في الحساب الأخير .

٩ — تنظيم وتوازن وربط محكم في التكوين العام لجميع لوحاته سواء في السقف أو في لوحة الحساب الأخير .

١٠ — خروجه عن المألوف في التقاليد الدينية المسيحية في كون المسيح يرسم شاباً لأول مرة مفتول العضلات ، واعتماده على العراة في أكثر اللوحات وهو أول من أظهر القوة في تصويره الديني حتى صارت لوحة الحساب الأخير مضرب المثل في العرى والتهتك الديني لدى غيره من الرسامين الذين حقدوا عليه وغاروا منه لشهرته وتفوقه وصار حجتهم عندما يريدون رسم لوحة عارية في مبنى وقور .

١١ — الوحدة النفسية التي تجمع الأشخاص في كل لوحة على حدة وفي جميع اللوحات متجمعة لتعبر عن قضية واحدة مشتركة يربطها هدف واحد ، ويبدو هذا واضحاً في التعبيرات المرسومة على الوجوه وفي الحركات المختلفة للانسان وفي الجو العام المسيطر على اللوحة .

١٢ — بالنسبة لمفهوم التعبير لم يكن مقصوراً عن الوجوه كما هو معروف في الفنون عامة بل تعدى ذلك الى الأيدي والأرجل والحركة العامة للاجسام ، وحتى الأصابع كما نرى ذلك في صورة العذراء أو في صورة الطوفان أو في صورة خلق حواء أو في صورة القديس سيبستيان في نفس معبد السكستين .

١٣ — استخدم مايكل أنجلو (المنظور القصير) أي المنظور الرأسي الأمامي وهذا النوع من الفهم للمنظور الذي يعتبر أصعب زاوية يمكن أن يرسم بها الشكل المجسم ، إن هذا الفهم هو فهم معماري لذلك نجد أن عدداً كبيراً من النقاد يصرون على اعتبار مايكل أنجلو مهندس اكثر منه مصور أو نحات ، وكمثل للمنظور القصير نذكر صورة القديس سيبستيان عند ركبته وساقه ، وكذلك في الزاوية اليسرى من الحساب الأخير الى الأسفل قليلاً رسم مايكل أنجلو رجلاً شريراً مذعوراً وضع إحدى يديه على عينه اليسرى ورسم ساقه بشكل منظور قصير وكأنه قطعة من النحت .

١٤ — أن مايكل أنجلو في لوحته الحساب الأخير استطاع أن يرسم الأشخاص وكأنهم يتحركون فعلاً في الفراغ وهذا الاحساس رائع جداً وفيه عبقرية النحت فعلاً ، حيث نرى الأشخاص وقد فصلوا عن الارضية تماماً وكأنهم معلقون في الهواء يربطهم باللوحة اللون الأزرق السماوي الذي يرمز الى الكون .

أما ماعرف عن بقية الرسامين من رسم أرضية اللوحة كمنظر طبيعي أو أبنية أو بيوت تدل على البيئة ، فإن مايكل أنجلو حذف هذا ليؤكد على درامية الفكرة وبعدها عن الحياة اليومية العادية في الدنيا ، وبالتالي لجأ الى هذه الطريقة لالغاء فكرة المكان والتركيز فقط على الزمان .

١٥ — ألّف مايكل أنجلو في هذا العمل الجبار بين خبراته الثلاث : النحت والعمارة والتصوير كما رأينا في تحليل السقف والجدران في معبد سكستين وفهمه للفورم وتجسيمه له كقيمة نحتية كاملة .

١٦ — النسب عند مايكل أنجلو جديدة وفيها رأي شخصي لم يسبقه اليه أحد ، خاصة في نسب جسم المسيح الى العذراء ، وكذلك في نسب القديسين الأخيار الى الأشرار ، كل هذا يظهر لنا أن ضخامة الرجل وضآلته برأي مايكل أنجلو له علاقة بمدى كونه شريراً أو خيراً طيباً .

تلك كانت وقفة سريعة لميزات فن مايكل أنجلو من خلال أعماله الخالدة في قبوة أو معبد السكستين ، أما النحت فينطبق الى حد كبير من حيث الميزات

الفنية مع ما أوردناه في تحليل أعماله في التصوير مع الفارق بالنسبة للفورم المجسم في النحت والمسطح في التصوير ، لأن أعماله في التصوير فيها احساس كبير للنحت وللعمارة ، وكذلك أعماله في العمارة فيها إحساس تصويري ونحتي ، وهكذا نرى أن مايكل أنجلو لا ينفصل أبداً عن أعماله فهو معماري ومصور ومثال بنفس الوقت على مستوى غير عادي .

ولنعد الآن الى مطلع هذا البحث ونتذكر المعجزات الثلاث : فالأولى كانت عن عبقرية الفنان البدائي في كهوف التاميرا ، ومررنا عليها مروراً سريعاً لأن موضوعنا الأساسي هو في هذا البحث مايكل أنجلو بالذات كواحد من هذه المعجزات الثلاث .

والمعجزة الثانية كانت عبقرية مايكل أنجلو ، أما الثالثة فهي عبقرية بابلو بيكاسو .

وفي حديث آخر سنأتي لدراسة بيكاسو دراسة علمية وافية ، الانسان والفنان الذي أصبح اسطورة القرن العشرين ولقد قال فيه النـاس ما قالوا ، واختلف في تقييم أعماله عدد كبير من النقاد ، ومنهم من هاجمه واعتبره أكبر مهرج في القرن العشرين ومنهم من اعتبره هبة الله الى الأرض ، ومنهم من كان وسطاً في رأيه .

ولكن المتفق عليه أن رجلاً يعمل بلا انقطاع ست ساعات يومياً أكثر من سبعين عاماً متواصلاً ، وعاصر جميع الحضارات وتأقلم معها ، وتطور معها ، ودرسها ، وفهمها ، وعبر عنها بصدق وبعفوية وبجرأة نادرة هو شيء غير طبيعي وربما معجزة فعلاً .

وأخيراً لنعد الى الاتهام الموجه لمايكل أنجلو (المعجزة الثانية في الفن) .

ما هي التهمة ؟

إنها نفس التهمة الملصقة بالفنان البدائي ، ونفس التهمة الملصقة ببيكاسو !

إن الفنان المعاصر بعد هؤلاء الثلاثة لم يعد يعرف ماذا يفعل ، لقد ضاعت عليه القيم واختلطت عليه المفاهيم ، وضاع عدد كبير من الفنانين بين الفن البدائي وإعجازه رغم بساطته وبين فن الطفل وسذاجته ، وبين قوة وجبروت وعظمة مايكل أنجلو ودقة نسبه ومهارة رسومه وفهمه التشريحي العميق وإدراكه لأحاسيس الانسان وقوته في التعبير عنها وأصالته في الغور في النفس الانسانية وتوضيح ذلك في النحت والتصوير بشكل واضح ، وبين بهلوانية بابلو بيكاسو وتطوراته وتغيراته العجيبة من مرحلة الى مرحلة ومن تجربة الى أخرى دون تحديد نقاط أو قيم لتكون خطاً منهجياً تسير عليه الأجيال الفنية من بعدهم .

- ماذا يفعل طالب الفن امام هذا الاختلاط الكبير من المفاهيم ؟

كيف نستطيع أن نفسر لطالب كلية الفنون أن رجلاً عاش قبل التاريخ ولم يعرف الفن في حياته كان يرسم على الكهوف أحسن مما نرسم نحن اليوم ؟

كيف نستطيع أن نفسر له أن نحاتاً مثل مايكل

أنجلو يضرب بازميله رأساً مباشرة بلا تخطيط سابق وبلا أي رسم أولي ليخلق من الحجر الأصم حياة وحركة وإنسانية تكاد تفيض بالرقة والعذوبة كتمثاله (الأسرى) ؟ .

أو كيف نفسر له أن نحاتاً مثل مايكل أنجلو يحاول أن يختبر امكانيته في التصوير ولأول مرة فيرسم هذه الملاحم البشرية الهائلة بصبر عجيب كما رأينا في قبوة السكستين التي تغف في التاريخ لوحدها دون أن تقارن بأي عمل فني ظهر منذ بدء الخليقة الى اليوم إلا وتتفوق عليه بمراحل حتى اعتبرت باعتراف الجميع بأنها من معجزات الفن النادرة في العالم .

وكيف نفسر له هذه الأعمال التي يقدمها بيكاسو من يوم لآخر منذ عام ١٨٩١ حتى الآن ولا يربط بينها رابط ولا يجمعها جامع ، وبيكاسو نفسه وهو في القرن العشرين يعود الى فن قبائل البوشمان البدائية في أفريقيا والى فن المكسيك البدائي أيضاً ، وإلى فن الانسان الأول ليدرسه ويحاول أن ينهج على نهجه ويسمى كل ذلك فناً حديثاً معاصراً ؟

إن التهمة الموجهة الى هؤلاء أنهم أوجدوا لنا هذه الفوضى في التقييم الفني وقطعوا الطريق أمام عدد كبير من الفنانين الذين صار انتاجهم يبدو هزيلاً أمام عظمة مايكل أنجلو أو أمام شاعرية الفنان البدائي أو بهلوانية بيكاسو ؟

ولعل المتهم الأول والأكبر هو مايكل أنجلو باعتباره جاء بشيء لم يستطع أحد لا من قبله ولا من بعده أن يصل اليه في التصوير والنحت ... وصار التقييم بالطبع على أساس المثل الأعلى للفن هو مايكل أنجلو ، وكل ما جاء بعده أقل من مايكل أنجلو ، المثال ، المصور ، المعماري .

غازي الخالدي

* * *

همسة حلوة

انهــا ابنتي

بقلم : خالدة عبد الله

الطرقات العاشقة تعرف خطـاي .. والزوايا المتعبة ترقبني بلهفة .. فهي رفيقي في وحشتي أتأملها بحب وحنان وأرنو إلى تيه أزهارها صيفاً والى تلون أوراقها وهي في خريف العمر .. وأسير مع بردى الحبيب فتلثم أقدامي الأوراق المبعثرة هنا وهناك، وتعانقني أشجار الحور الشامخة ويناديني الجدول المنساب فأضمك أيتهـا الحبيبة (غالية) الى صـدري بفرح وأضم معك المدينـة والوجود ... ثم نترك رفقة بردى ونلجأ الى حضن قاسيون نحتمي بـه ونفخر فيرعانا كأب حنون ويخلصنا من متاعبنا .. وتنحني شجرة الياسمين وتودع بأنفاسنا عبيراً هادئاً .. فأنتشي وأتساءل بقلبي الطفل .. أيمكن لمدينة في العالم أن تعطي أكثر من هذا .. ؟ أيمكن لانسان أن يمنح كل هذه السعادة ؟ طفلة جميلة ، ومدينة خالدة يؤلفان معاً أروع أنشودة عرفها التاريخ ... طفلتي ودمشقي أجمل وأثمن كنوز العالم ...

فأنا أراك أيتها الحبيبة الصغيرة بكل تلون ورقة ، ورجفة غصن وتموج لحن . وأرى مدينتي الحلوة بعيني طفلتي الزرقاوين وثغرها الملائكي ، وضحكتها العذبة ..

لذا كنت أعود بعد كل فراق مسرعة إليك .. دمشق الحب والحنان . دمشق المتعة والدلال أعود اليك بشوق .. وأتمنى أن أحضن كل ذرة من ترابك المقدس وأن أحتوي صغيرتك الحلوة بين ضلوعي . لو أمرغ وجهي على الأرصفـــة ، لو أعانق عمود الكهرباء ..

بابنا العتيق يا صغيرتي ، وجدارنا الكالح . مكتبتي الكئيبة ، وسريري الحديدي الصديء ومقعدي الوحيد .. وحاجياتك المبعثرة وكأس مائـــك الصغير . ووعاء لبنك الزجاجي .. وثوبك الممزق . وفروة حذائك المنسية كل هــذا يبدو لي قطعة فنية ولحناً رائعاً يلون حياتي بألف لون ولون فيسخر من مشاعري الجميع ويقهقهون فاضمك أيتها الحبيبة الى صدري واهرب بك الى دربنا المسحور أشدو مـع الطير مع اشجار الحور الباسقه . فيلفني الهواء البـارد بحب وحنـان وتوشوشني النجمات المطمئنة في سماء لامتناهيه الزرقة ويناديني بردى مع كل عاشق صان سره فنرتل معاً ما أروع دمشقي وشمسها المنيرة وجوها النقي – انها لحن لم يعزفه وتر قيثاره بعد – وقصيدة لم تنمقها عبارة شاعر وانشودة لا مثيـــل لسحرها لم تمسها يد فنان ...

والآن .. مابي ... لقد تغير كل شيء وغدت حياتي لا لون لها وفقدت أشجار الحور الشامخة المدللة

على ضفتي بردى لونها ورواءها وكبرياها ، وجبلي ، قاسيون البطل مابه يتحدى دمشق ناظراً اليها شذراً يريد أن يلتهمها ، أن يمزقها وبردى يئن معي ويتوجع ... ويشاركني ندائي . يتوسل الى الأرض معي الى السماء والنجوم والأشجار ان تعيد اليّ طفلتي الحبيبة ... فهي صغيرة لا تتحمل قسوة الحياة بعيدة عني ، لقد اعتاد رأسها الاشقر الصغير النوم على زندي ... وألفت يدها الصغيرة مداعبة عنقي ، وتعود ثغرها الحبيب ترديد اسمي ، وجسدها يرتاح قربي .. بردى يناديك معي أيتها المعبودة الصغيرة ، والطبيعة تعيش مأساتي دنوت من شجرتنا المستريحة في أول الطريق ولمستها بخشوع علني اهدأ قليلاً ... علني استمد من قوتها العون والصبر . فاهتزت بشده وتهادى حولى صوت عميق عميق ، انني أعيش مرارة الفراق واحن الى اليد الصغيرة تداعبني والى فراشتي الحلوة تختبىء بحضني . فالتفت لأرى من يتكلم فلم أجد غير ظلي .. غير ظلي الباهت يرتسم على الأرض المشمئزة فتجمدت .. حتى الظلال لا لون لها .. كيف يتغير شكل الظل ، ورفعت نظراتي الى السماء شاكية . فراعني شحوب الشمس ... اواه اني بحلم ... لا يمكن أن يحدث هذا ابداً لكنه الواقع واعود الى نفسي ... فالشمس باهتة لاها تعيش عواطف ام شابه فارقت طفلتها الصغيرة .. لقد خطف الجناة منها صغيرتها وذهبوا بها بعيداً بعيداً . بل انها تصيح مع الام الطفلة لا .. لا يمكن هذا .. محال ان اعيش وطفلتي الحبيبة بعيده ... فتردد الأشجار بقلب الأم المفجوع . انها ابنتي انا . ابنتي أنا فيزأر الجبل ويحمل دموع الأم ويحيلها عواصف تجتاح المدينة وتهدد الجمع الثرثار ، تصيح ... ماشأنكم بي لا اريد الحياة في بلدتكم المجرمة ... بلدتكم الظالمة لا ارغب بالحياة في بيت ظالم كل مابه يطبق على انفاسي وروحي دعوني اذهب اليها ... دعوني امرغ وجهي عند موطىء اقدامها الصغيرة .. مابكم تحدقون بي . اني اكرهكم واكره نجومكم المطفأة ، نجومكم انها عيون شياطين تبتلعني تلسع روحي ... وقمركم عملاق يقبض على خناقي . مابكم تقهقهون ... اريد الرحيل .. اني غريبة ... رباه كيف غدوت غريبة في بلدتي ، لانا لست في بلدتي ... وحولي غرباء لا اعرفهم ولم التق بهم يوماً ... انهم يسخرون مني ويهربون وانا لا يمكنني الحياة مع غرباء ...

أريد الرحيل ... فيقهقه كل من حولي ويرددون أين تذهبين ؟ قدماك في الوحل ، مغروستان في الأرض .. وابنتك بعيدة مع الغرباء ، ولن تعود إليك ... ستموتين هنا وابنتك بعيدة والغرباء حولك .. فيموت الحرف في حنجرتي وأصحو على صورة شوهاء تملأ الفضاء حولي . ابنتي بعيدة تعاني مثلي السجن والعذاب تناديني ، تطلبني ، يخنقها الهواء ، تجرحها الشمس .. وأنا سجينة أيامي وعذابي وصوري وأفكاري ..

لن أرحل إليها محال الوصول إليها أو عودتها إلي .. بل لن أرحل مطلقاً . لن أغادر مدينتي وبيتي .. بل ما فائدة رحيلي بعيون ترى الظل باهتاً والنجوم مطفأة والقمر عملاقاً والجبل مشمئزاً .. وملء آذاني عويل وصياح ..

حياتي هنا مع شمسي الكالحة وهوائي الخانق وأفكاري الصدئة وقلبي الخائف ...

أستكين إلى واقعي الأليم ، فأسمع وشوشة وعتاباً ... عتاباً يشتد حتى يغدو سياطاً تلسعني . فأبكي بحرارة وتغمر دموعي شارعي المظلم ... فأردد وأنا ألثم التراب فيهدأ الصوت متهادياً في أعماقي.. صوت دمشقي الحبيب .. إنك ابنة عاقة .. إني معك في مأساتك لذا لبست الحداد أرضي ، سمائي ، نجومي وقمري كلها تشركك حزنك وتقف معك وتعيش فراقك لابنتك الحبيبة ووحيدتك الغالية ..

فارتعدت دمشقي أحقاً أنت حزينة معي .أشجاري الشامخة بربك عودي إلى كبريائك أنجمي المطفأة أتوسل إليك أنيري الدرب للتائهين.. لا لن أبكي بعد اليوم لن أصيح وأسجد بخشوع وأصلي بدموعي وأصمت فيتسع السجن حولي ويتسع ويحفر هوة عميقة تبتلعني مع لعنتي ومأساتي .

وتتحرك شفاهي الميتة بكلمات عفنة .. إني رهينة سجن لا فرار منه وقيد لا أستطيع كسره ..

رعاك الله أيتها الحبيبة .. إني أراك بكل طفلة ونجمة ، وأسمع تغريدك بالأحرف مع كل صوت .. انك عالمي ودنياي ، انك شمسي ونجومي وحريتي ووجودي . لذا غدوت بعد فراقك بلا شمس ونجوم بلا حرية ووجود ..

وغدت شمسي كالحة ونجومي ثائرة ومدينتي قبراً .

ستقرئين أيتها الحبيبة كلماتي يوماً .. وتشردين بعيداً .. ويتمتم ثغرك الملائكي . إنها أمي .

خالدة عبد الله

* * *

مقطوعة شعرية

قالت وقد فتكتْ فينا لواحظها
كم ذا أما لقتيل الحب من قود ؟

وأمطرت لؤلؤاً من نرجس وسقت
ورداً وعضت على العناب بالبرد

انسية لو رأتها الشمس ماطلعت
من بعد رؤيتها يوماً على أحد

كأنما بين غابات الجفون لها
اسد الحمام مقيمات على الرصد

الوأواء الدمشقي

المعهد الموسيقى

(IL CONSERVATORIO)

للاديبة الايطالية ريجينا آنييزيني
(REGINA AGNESINI)

ترجمة : عيسى الناعوري

في ايام الربيع عندما يجيء المرء من شارع (ب) ويبلغ ساحة الكنيسة ، من السهل ان يرى الى الشمال في احدى الحدائق شجرة منورة ، ولا يمكن ان يتبين لاول وهلة ما اذا كانت شجرة دراق ام مانوليا ، ولكن الشجرة تبدو لامعة في نور الشمس الساطع بحيث لا يسعك الا ان تقف لمشاهدتها . انها في مكانها هناك في قلب المدينة دليل ناطق بحلاوة الطبيعة .

والكنيسة الى الجهة المقابلة . وعندما ترفع عينيك الى النتوءات الباروكية الحجرية ، تقرأ في مكان مرتفع الكلمات التالية باللاتينية : Amori etdolori ، أي (للحب والالم) . وكيف لا تعود الى الذاكرة اوقات النوار السابقة حين لم تكن هذه الكلمات تعني شيئا على الاطلاق ؟

يقع المعهد الموسيقي الى يمين الكنيسة بجدرانه المقشرة الباردة . ومن نوافذه المفتوحة في ذلك الفصل الجميل تجيء انغام بيانو . واذ تدخل الى ساحة المعهد ، حيث الازاهير المتعربشة تلامس الواجهة الغوطية ، يخيل اليك انك نسيت الشجرة : ولكن لعل أي تذكار نلقيه عن اكتافنا ليس اقوى من الالفاظ المكتوبة مطلقا ، لانها تعني أفضل الاشياء . غير ان هذه الالفاظ التي لا تنسى ، حقائق خادعة في صميمها ، فهي اضخم جدا مما يستطيعه الانسان .

حينما لاحظت (ايريني) تلك الكلمات لاول مرة ، ركزت نظرها عليها طويلا ، وراحت تتأمل في دهشة تلك المقاطع اللاتينية : (للحب والالم) .. ترى ، هل ولد مصير الشجرة من محبة الله ؟ لعله نعس في احد ايام الخريف ، وهناك في الحديقة ظهرت عارية كأي مخلوق لا مستقبل له . في ذلك الحين كانت قد وصلت الى المدينة مبكرة جدا . بعد عام واحد من انتهاء الحرب كان الهواء ما يزال يحمل رائحة حادة من الدخان ، ورائحة اخرى اشد منها تنبعث من الشيد المتراكم ، وما تكاد الريح تهب من تلك الركام الهائلة

من القاذورات حتى يرتفع غبار كثيف لا يلبث ان ينتشر على الطرق ، ويتسرب الى داخل المتاجر حيث يبتاع الناس حاجاتهم الهزيلة التي تبعث على الحزن العميق. لقد كان الموت ما يزال قريبا بحيث لم يكن يمكن تمييز الحدود بينه وبين الحياة . كان الرقاد ما يزال مستمرا ، ولكن الغم يتلوه ترقب حلو ، ويقين بان الحياة على كل حال ما تزال مستمرة . وكان المتسولون والمتسكعون والايتام يفتحون عيونهم غير الحساسة وشفاههم الخرس ، وكان بعضهم يسير بين الخرائب بحثا عن شيء نافع ، وهو يمسك بيده طفلا ممزق الثياب . كان الناس يعيشون في أكواخ خشبية ، وفي الاماسي يصطلون نارا موقدة في العراء . وكانوا يأكلون خبزا مصنوعا من الطحين الاميركي ، وهم على استعداد لان يصفقوا ويهتفوا للجنود الزنوج لقاء علبة لحم صغيرة .

كل ذلك كان حينما وصلت ايريني الى المدينة لاول مرة للالتحاق بالمعهد الموسيقي . لقد كانت الحرب بالنسبة اليها عائقا متوقعا يمكن قبوله ، غير ان الحياة الآن لم تعد تحتمل انتظارا آخر . انها مغتبطة قريرة ، وحوافز الكآبة الطبيعية لديها تدفعها الى ان تحلم مع الشجرة المنورة التي فيها شيء من عالمها المصنوع من البطء والتأمل . وهي تغتبط في ان تصل الى المدرسة قبل الآخرين لكي تتأمل الشجرة . انها تفكر في الزمن الذي ستقوم فيه عازفة بين جمهور كبير من أهل المدن الاوروبية ، فهذا سيكون يوما يستغرق احلام جميع الايام ، على الرغم من ان تلك الكلمة العالية تسيطر عليه بكل مخاوفها ، كأنها بقع في عينيها .

الحب ؟ انها لتذكر قبلتين على فمها لم تحس بهما ، وتكاد لا تذكرهما ، وقد كان ذلك في اثناء عرض احد الافلام . وربما كانت هناك قبلة اخرى مختلفة ، خشنة ، تحت الاشجار في ذات مساء . ثم لم تعد ترى ذلك الفتى . وهي الآن تنظر الى يديها امام مرآة البيانو اللامعة . انها ثائرة . في نفسها يقين ثابت من انها لا تريد من نفسها سوى الهبة التي في أناملها . ويشرة تفكيرها الى الفتيان الذين يهيمون بحبها: حينما يلاحقونها بعد الدروس يساورها الشك في ان فيهم مسا من جنون غريب ، وفي نظراتهم تجد ايريني ما يوحي بعدم الثقة واللامبالاة ، الا ماركو ، فهو وحده الذي تشعر نحوه بشيء مختلف . لعلهما عيناه الممتلئتان صرامة . حتى ماركو يكسرهما ، يكسرتينك العينين انفسهما ، على صفحات بيتهوفن . انها واياه افتيان طموحان ، وهما يتلفتان حولهما متباعدين . انهما لا يضحكان بسهولة .

في ذلك العام ، الاول من حياتها في المدينة ، تعلمت ان تكذب . في اول الامر كان الجميع يكذبون : لا تدري على وجه التحقيق لماذا . ثم اخذت تقنع نفسها بان ذلك ضروري ،وبكل اطمئنان عرفت كيف تنال مودة الآخرين يوما عن يوم ، وبشكل لم تألفه قط من قبل ، متهكمة بمظاهرهم الزائفة ، ومعدد اخطاءهم . في الطفولة كانت امينة على نفسها ، وفي المراهقة تعلمت ان تبتسم . وكان الاستاذ (ب) يبدو راضيا كل الرضى حينما يدق الجرس في قاعات الصفوف في نهاية كل درس فيرى ايريني تسرع الى المشجب المعلق عليه معطفه لتنزعه عنه وتساعد الاستاذ على ارتدائه . وكان يقابل هذا الاهتمام منها بابتسامة طويلة ، ويقول لها : « أنت عزيزة ، عزيزة جدا أيتها الفتاة ! »

كانت فخورة جدا ، وان تكن تحس في فخرها هذا بشيء من الوهم ، لان الاستاذ كان في العادة يصبح لطيفا حينما يتملقه الآخرون . انه اشبه بد

في قفص ، ومع ذلك يتسابق الجميع امامه عند الخروج الى الممرات لكي يفتحوا له الابواب •

كانت ساعات الدرس تلك تنتهي عند الظهر ، ولكن المعلم كان يخرج الى الملعب في اثناء الاستراحات ايضا لكي يتنشق بعض الهواء النقي ، ويمضي يتخطر ذهابا وايابا في رفقة بعض الزملاء • وفي اثناء غيابه كان كل واحد يستطيع ان يجلس الى البيانو ويعزف ما يشاء بحرية • لقد كنا نحسد انفسنا • كانت الفتيات الاكبر سنا يعقدن المراييل خلف اكتافهن ، ويتبادلن العبارات الودية همسا ، ثم يتخذن شكل العباقرة المبكرين فيبدون في صمت صارم وهن يجلسن هناك يقرأن عقليا بعض المقطوعات القديمة • وكانت ايريني حينئذ تعتقد ان المدرسة ، كأي مكان آخر في العالم، قد يقع فيها من اعمال السحر ما يمكن ان يتحول معه البعض من رفاق طيبين الى طيور خاطفة ، تطير من النوافذ ، وتزعق وهي معلقة على الجدران ، وهناك ، في ذلك الطيران المتلاحق صعودا ونزولا على سلم المعهدالمتداعية تنسج لانفسها المشاريع الا بعدطموحاء كانت تلك الطيور المسكينة في سباق مجنون لأيها يصل قبل الآخرين الى قمة العمود • ومن الطبيعي ان يتخاصم الناس قليلا ، او ان يحب بعضهم بعضا حبا جنونيا ، وان يمضغوا المناديل ، ويدرسوا ، يدرسوا بشدة الى حد أن يجعل الواحد منهم من نفسه إلـهاً • ان الاولمب ليغتبط بذلك • غير ان نيران حياتهم المقبلة كانت محصورة كلها في الدرس السريع ، من اول نوطة موسيقية الى آخر نوطة • شيء عظيم ، لا شك في هذا • والذي يعزف بهذا الشكل لا بد ان يصبح عازف بيانو عظيما • وكيف لا نبرر الغيرة ؟ ان العدوى لتسري تحت لفظة سحرية ، ولكن الحياة من دونها غير ممكنة ، ومن لم يستطع الشك لا يستطيع انيدرك تلك الحساسية اللذيذة التي تسري في الجسم كله •

ولكي يقي المرء نفسه من نشوتها ليس امامه غير أمر واحد ، هو : ان يفوز • ولم يكن الطلاب وحدهم مقيدين بذلك ، فقد كان الكبار اكثر انصبابا من الصغار • وكان للاستاذ (ب) غريم هو الاستاذ (ت)، وهو رجل في منتصف العمر ، ولم يكن مثل (ب) قصيرا صغير الجثة ، بل كان مديد القامة ، ممتلئا • وكان شعره يتدلى طويلا على اذنيه ، ذا نظرة صارمة، كثيرا ما ترافقها ارتعاشة يديه • وكانت عيناه عنيدتين، تنتهيان باصابع طويلة بيضاء • وحينما يعزف على الكمنجة ، اوه ! كان لا بد من الانفعال ، لان العزف حلو ، والنغم ساحر • وكان وجهه الذي تتعاقب عليه مختلف التعابير يوحي بحزن قديم عرفه في طفولته البائسة بامعائه الهزيلة الممتلئة بالحليب •• كان يرتدي قميصا قديما وسراويل عريضة يبدو فيها ، عندما يسير، كأنه يرتدي ملابس كاهن • وعلى وجهه المظلم الشاحب معا تنحدر حتى الفم ثنيات تدل على التعب • كان يرى سائرا مطأطيء الرأس ، وقل ان يرفعه ، وهو لا يفعل ذلك الا حينما يتلقى تحية قوية • ذلك الوجه الذي تلفه ايضا سحابة من الاخلاص والصدق كان يوحي الى ايريني المتوردة السليمة الجسم بمعنى من الالم • لقد ودت ان يتاح لها الحديث معه يوما ، غير انه من الاكيد ان (ت) ما كان ليأبه لها • وحاولت ايريني ان تفهم الامور اكثر مما تدركها الآن ، وان تقرأ سير كبار الموسيقيين • وراحت تلاحظ ، وتخلق لنفسهادنيا من الانسجام والتناغم مع كل ما حولها ، ولكن ذلك كان ضربا من الوهم ! لقد ظلت الامور كما هي تضيع تماما مع الهمس ، واقوال السوء ، ومع المضايقات الصغيرة التي يتبادلها الطلاب والاساتذة • وفي مثل هذا العالم المنعزل ذي النظام الخاص ، كانت اعصاب

الجميع في حرب باردة من وعود تقابلها تحفظات ، وانكارات مهذبة ، ومن تصرفات متعجرفة من قبل من هم اوفر علما ، يقابلها دهاء وخبث ممن حذقوا التملق . ولم تكن الايام تخرج عن هـذا النمط الا نادرا . صحيح انه كان هناك ايام استثنائية يبدو فيها الجميع وقد ولدوا اصدقاء . في احد تلك الايام كانت تجري الامتحانات النهائية في احدى قاعات المعهد الصغيرة . وفي امتحانات الكونشرتو كان يعزف افضل الطلاب . وكان هناك الجمهور ، والمدير . وفي آخر القاعة عدد من الاصدقاء والمعارف . لقد سبق ذلك استعدادات طويلة . وكان الاستاذ (ب) في الفترة التي سبقت الكونشرتو قد حظر على الطلاب الذهاب الى السينما ، وفي غرفة دروسه كان يفرض على الطلاب الاكثار من تكرار القطع الصعبة التي لا يجيدون عزفها اجادة كاملة . وكان يصرخ فيهم ناعتا ايهم باغرب النعوت : « يا عين السمكة ! » وايضا : «بطة ــ جمل ــ زعنفة ــ حسون ــ اذن مبطنة ! » . وكانت عيناه تنتفخان من شدة التهيج فيبدو كأنما يهم بان يقـذف بنفسه من لحظة الى أخرى على العازف المسكين ليضربه . وكان لا بد من ان ينال احدهم صفعة عريضة ، بينما يدمدم (ب) انه قد عيل صبره : كان يصيح: «الدو العالية!» فيرتبك الطالب ، وفي ارتباكه يعود فيضرب (الدو) العادية . ولم يكن احد ينبس بكلمة . كانت القاعة اشبه بانتفاخ هوائي في قاع منجم او في حجرة فضائية مقذوفة في الكون الواسع . وحين كان مثل هذا يقع لاحدى الفتيات كانت الدموع تسرع الى نجدتهـا ، فيهدأ الاستاذ . لا بد انه لم يكن يطيق دموع النساء ، فقد كان يظهر أسفه مخلصا ، ويتهالك باعيـاء على المقعد ، ويتنهد قائلا : « لا ياعزيزتي ، لا ... » وما هي الا لحظة حتى يصرخ : « كفى ، فلسنا هنا في ملجأ للاطفال ! » فتسكت البنت حالا . كذلك كان يبدو الامر احيانا ، غير ان تلك الدموع التي كانت الصديقات شبه الضاحكات يبترنها بمناديلهن ، كانت تنتهي عادة في ممرات المعهد او خلف ابواب المراحيض .

ولم يكن اهتمام الاستاذ (ت) في اعداد طلابه أقل من اهتمام (ب) . ولكي يمنح نفسـه شيئا من الراحة في بعض الاحيان كان يأخذ كمنجته ويشرع في احد دروس (باغانيني) . وكان عزف الكمنجة هذا أقوى من أي شيء آخر ، أو لعله كان الغضب الكظيم هو الذي يجعل تلك العلبة الموسيقية الصغيرة تعزف ذلك العزف القوي . غير ان تلك النوطات كانت تقع في اذن (ب) وقعا مثيرا متحديا ، فيقول : « لقـد فتحوا النوافذ من هناك ! » ثم ينهض مندفعا ليدخل على المدير ويقول: «ليس من الممكن ان تستمر الامور هكذا . انت تعرف يا استاذ ان لدي انا ايضا عملي ، ولكنني لا استطيع ان اميز أية نوطة مع هذا القرف!». ثم يجفف قطرات العرق الكبـيرة ويجلس متهالكا . لقد كانت له شخصيته القوية العاطفية ، وكان المدير رجلا قليل الجسم هزيلا ، عمره ستون عاما ، وكان يتحمل تسلطه وعناده الى حد انه ، بعد تلك الزيارات ، كان يذهب بنفسه الى (ت) يرجوه ان يغلق النوافذ . وجاء يوم غير فيه (ت) قاعته ، وفي تلك الايام عينها كان (ب) قد عين نائب مدير . لقد انتهى الخصام اذن . ومنذ ذلك الحين كان الاثنان اذا التقيا يتبادلان شبه تحية بخفق الرموش . وكان الاستاذ (ب) يحاول ان يبتسم كانما يريد ان يقول ان ضميره نظيف .

ولكن الجميع كانوا يظنون العكس ...

والآن كان كل من الاستاذين يدرب طلابه علـى هذا النوع من الحديث :

ــ ماذا تدرس للامتحان ؟ كونشرتو فيفالدى ؟

ـ كلا ، ان هذا صعب جدا •

ولكنه في الحقيقة يكون منصرفا الى درسه سرا ، فلا يدع احدا يدري بذلك الى اليوم الذي يسبق الكونشرتو • وكان المدير ابان ذاك يتفقد مختلف الصفوف : صفوف الكمنجة ، والبيانو ، والبوق ، والمزمار ، وغيرها من الآلات الموسيقية ، حتى قاعات الطلاب الذين يدرسون التأليف الموسيقي • هناك كانت آلات البيانو قديمة مقطعة الاوتار ، وعندما يضع المرء يديه على الاصابع المصفرة كان يصدر عنها مواء مزعج يخيل اليه معه ان جميع مطارق البيانو الصيرة مخلخلة • وفي الوقت نفسه تتجاوب أصوات الكمنجات المختلفة ، والنايات ، والآلات الاخرى على جدران القاعات من واحدة الى اخرى ، فتخلق سمفونية عجيبة لا تسمح بوجود أي نوع من النظام في الانغام• ومن ترى يمكن ان يظن بامكان توافق آلات البيانو؟ يبدو ان آذان الملحنين لم تكن تلقى شيئا من الاحترام• لقد كان الطلاب يعملون كثيرا، ولا يستريحون الا على احلام الغار التي توحي بها التماثيل النصفية الموجودة هنا وهناك ، لعباقرة قدماء ، حفرتها أذواق سيئة في الجبص • وكانت تلك الكاريكاتورات الموسيقية ، او تلك الانصاب التذكارية ، تسقط من حين الى آخر على الارض ولكن دون ان تتحطم •

وكانت زيارات المدير يسبقها ايذان من احد الأذنة • وهل من المحتم أن يظل المرء يحطم طبلة أذنيه طوال النهار ؟ وكانت تلك الزيارات تستقبل استقبالا حسنا ، فيتوقف الكونشرتو كله دفعة واحدة ، وبين الصمت المهيب غير المألوف بين تلك الجدران ، كان شكل المدير يجتاز الممرات الطويلة حتى يصل الى غرف الدروس ، وكان الآذن يتقدمه ويفتح له جميع الابواب، ويجري امامه بخفة وهو لا يفتأ يردد دون نهاية : « اسمحوا لي ! عن اذنكم ! » واخيرا عندما يجتاز آخر حاجز زجاجي يقرع باب اول قاعة ويدفع مقبض الباب بيده ، ويقول بصوت يحاول ان يجعله يبدو أمرا : «السيد المدير! » ، فاذا الطلاب جميعهم وقوف• ويتبادل المدير والاستاذ الابتسامات وشد اليدين ، ثم يأخذان في حديث خافت • وبعد ذلك يعلو صوتاهما امام الجميع • ولم تكن تنتهي الزيارة الا حينما ينهض المدير ، وعند ذاك فقط يلتفت حوله بعينيه الرماديتين المستديرتين ، فينظر متفرسا الى الطلاب ، ثم يتقدم مسرعا نحو احدهم ويسأله :

ـ ما اسمك أنت ؟

ـ اسمي س• س•

ويقول المدير مبديا رضاه : ـ وماذا تدرس ؟

ـ بروكييف، برامز • المعزوفة التي تبدأ بال ، فا •

ـ اي فا ؟

ويجيب الطالب مرتبكا وهو يضغط يدا بيد : ـ فا العالية •

ويتهدل شعره على عينيه فيروح يهز رأسه بعصبية ليرفعه عنهما •

ويقول الاستاذ : ـ ان هذه المعزوفة جميلة جدا• من المؤسف انه يكاد لا يحسن عزفها • آه ! شباب من غير دماغ !

ويشعر الطالب بالمهانة • ويعود المدير فيقترب من طالب آخر ، ويقول له ، وكأنه يراه للمرة الاولى : ـ وانت ؟

ـ معزوفة اللمس والهرب ، التي تبدأ بالري ، لباخ •

ـ للبيانو ؟

ـ نعم •• اظن ذلك •

ـ قل لي ، لاية آلة وضعها باخ ؟

ـ لا ادري .. اظن انها ..

فيقول المدير غاضبا وهو يأخذالكتاب بيده ، بينما يقترب منه الجميع : « المقصود هو النسخة التي نقلها (فيروشيو بوسوني) . افتحوا عيونكم أيها الطلاب ، ألا تنظرون أبدا الى غلافات كتبكم ؟ » . ثم يضيف : « اقرأ هنا » ، ويهز رأسه ممتعضا ، ثم يختم كلامه قائلا : « حسنا ، مدهش ! سيكون لدينا امتحان رائع ..! » ثم يضرب بيده على كتف أحدهم ضربة خفيفة ، ويضحك من حين الى آخر ، وفي الوقت نفسه يبدو رأسه الاصلح تماما وكأنه يضحك معه بدوره ، وكذلك أسنانه ، وهي اصطناعية دون ريب . ومن المستحيل أن تظل أسنانه غيرمنسجمة بهذا الشكل، وأن يظل رأسه ليس فيه شعرة واحدة ..

وكانه النكات هوايته المفضلة ، فقد كان يعرف المئات من النوادر . ومن المؤكد أن ما كان يستعمله مع الطلاب من مواضيع تلك الدعابات القذرة كان محدودا أما مع الاساتذة فيقال أن المدين كان يذهب في الامر بعيدا ، وأحيانا ينتهي به الامر الى أن يقبل ـ في البداية أو في النهاية ـ جميع الطالبات . وكانت قبلاته بريئة حين يلتقي بهن بعد غياب طويل ، وقد تكون مختلسة أحيانا تحت الاذن ، وأحيانا أخرى تكون ابوية على الجبن . واذا ما دخلت طالبة يوما الى مكتبه لسبب ما، حيث يؤلف المدير معزوفاته الموسيقية على ركن بيانو كبير جدا ، كان يدعوها بلطف الى الجلوس ، ثم يجلس هو الى البيانو ويغني لها احدى وجدانياته . وينهض بعدئذ فيلقي نظرة الى الساحة ، حتى ليبلغ بنظره الى تماثيل ملائكة الكنيسة ، ثم يبدي ملاحظة ، فيقول أن الدنيا مطر ، أو صحو ، ثم يقبلها .

لقد كان هو الذي يختار احسن الطلاب للامتحان. وحين كان الكونشرتو ينطفىء في عاصفة طويلة من التصفيق ، كان المدير يعود الى خلف المشاهد لكي يتبادل التهاني مع هذا أو ذاك ، ومن حولهم الاهل والاصدقاء والمعارف . واما الاساتذة فكانوا يصغون، ثم يرددون ما قاله المدير في تلك المناسبة . يا للسعادة! ان من كان يستطيع أن ينتزع الثناء من المدير كان يشعر بأنه أصبح مخلدا . وكان الطالب المفضل ينحني أمام الجميع وهو يسمع ثناءهم :

ـ لقد كنت مدهشا . ما أروع حسك الموسيقي!

ـ وما أروع تقدمك !

ـ لقد كنت كأنك ميكلانجلو !

هذا والموسيقي البارع يكرر بلا انقطاع : «شكرا، شكرا » ، ويصلح ربطة عنقه التي تشبه الفراشة ، وشعره المشسوط ، ويشد يد كل واحد مصافحا ، وأخيرا يجلس تحت الحاح الآخرين وهم يقولون له: « يجب أن تستريح الآن »

حينما وقع نظر المدير على ايريني لاول مرة راح يتفرس فيها في شيء من الطيبة وسوء النية معا ، ثم مر بيده على خدها كأنما يؤدي عملا وديا قليل الاهمية. كانت عينا ايريني زرقاوين لامعتين ، فأطبقتهما شبه حالمة ، ولكن دون أن تبتسم. كانت تشعر شعورا غريبا بالتعاسة لان تلك الاصابع الباردة قد بعث فيها احساسا غير مرض ، كما كانت تشعر في طفولتها حين كان يداعبها انسان لاتعرفه .

وساء المدير أن لاتبتسم له ، اذ لم يكن انسانا خاليا من المركبات المشتركة . وبعد أن توقف ليحادث (ب) عادت عيناه فتوقفتا على أيريني من جديد ، كأنما يريد أن يتخذ قرارا . وسأل :

ـ « أصحيح انه لايمكن ، صوتيا ، اجراء استراحات السلم السباعية الصحيحة ؟ وهل صحيح

أن هذه السباعيات، عند الغناء ، لاتكون سوى ثمانيات ناشزة ؟ » •

فترددت ايريني •

ورمى المدير بعض الموسيقيين الطلائعيين باسم (الفلاحين الجفاة) ، بينما راح يثني ثناء لاحدود له على (فيردى — وبوتشيني) اللذين تجهلهما ايريني • لقد كانت تفكر تفكيرا يختلف عن تفكير المدير ، ولكن كان يلوح من خلال الحديث ان هناك شيئا من امكان تقديمها للكونشرتو • واستمرت في ترددها •

وعاد المدير يلح في أسئلته : — هل أنا على صواب ؟

فأجابت : « نعم ، نعم » • •

— ما اسمك ؟

— ايريني ش•

— اسمك جميل • هل ستعزف هذه الفتاة في الكونشرتو ؟

فأجاب (ب) مقطبا : « سنرى » • ولم يذكرها بسوء فعلا ، بينما ظلت ايريني مطأطئة رأسها حياء لا خوفا •

— « هذه الفتاة قليلة الكلام » • قال المدير ذلك وهو يلمس بيدها خدها غير عامد ، في حركة واسعة من ذراعيه مشفوعة بعبارة « الى اللقاء جميعا • تابعوا الدروس ! » •

ماذا كان يظن الشيخ ؟ أكان يظنهم جميعا أطفالا؟

ورفعت ايريني صدرها في تنهدة ثقيلة • ان الصفعة ولمسة المداعبة قد تتشابهان أحيانا فيما يبدو ••• غير ان حركة عامة كهذه ، اذا لم تؤخذ على وجهها الصحيح ، قد تؤدي الى تعقيد الصلات ، وقد ترسخ في الذاكرة كاثارة ، أو كاغراء ،أو قد تثير بعدها — كما حدث لايريني — ذيولا من التساؤلات : « لماذا ؟ وكيف ؟ » • ان بعض الاشياء الحلوة تترك بعدها حتما أمورا قاسية • لقد أحست بأن تلك الزيارة جاءت تهدم كل خططها للمستقبل •

لقد وقع شيء• ان بابا قد أغلق بقوة• كان الطلاب قد غادروا الصفوف عند الظهر ، وبقي البناء خاليا • وكانت الشمس قد تعالت فوق سطوح القصور ، وراحت تتموج على الطرق ، وحزم من النور تنفذ من النوافذ • وكانت البيانوات مغطاة بطبقة من الغبار ، ودخان السجائر التي كان الاساتذة قد دخنوها خلال ساعات الدروس قد أخذ يخف • وعلى الموائد ما يزال بعض الاطباق التي كان قد قدّم عليها الشاي والقهوة ، والمنافض ممتلئة بأعقاب السجائر، وعلى أصابع البيانوات التي كانت الايدي الرطبة تداعبها قبل قليل ، ترى آثار وسخ • فحلت ايريني شعرها ووقفت أمام الزجاج تنظر الى وجهها المتعب البادي النعاس • كانت تظن انها وحدها ، ولم تكن تريد أن يراها أحد هناك في تلك الساعة • ودنت من الباب تريد اغلاقه • ولكن ماذا تراهم يقولون لو وجدوها هناك هكذا ؟ لقد كانت تعلم انه محظور التريث في غرف الصفوف • وكان ضروريا لكي لايسمعها أحد أن تضع دواسة خفض الصوت في البيانو ، ولكنها رفعتها بعض المرات متهيبة وجلة •

وفاجأها أحد الخدم فقال لها : — أنت تعلمين أنه لايمكنك أن تبقي ههنا !

— لدي اذن من المدير بالبقاء •

فبدت على وجه الرجل علائم التفكير ، ثم قال : — ولكن لماذا تبقين هنا ؟

— ألا ترى ؟ انني أدرس • ثم لقد نظفت الكراسي والبيانو أيضا •

فقال الخادم ساخرا : — حسنا فعلت ، أما في ما يتعلق باذن المدير فسنرى الآن اذا كان هذا صحيحا••

واذا لم يكن الامر كذلك فأنت تعلمين انهم قد يوقفونك عن الدروس .

فضحكت ايريني في نفسها . أكان الرجل يحاول أن يتذرع بوظيفته لكي يهينها ، أو أسوأ من ذلك، لكي يخيفها ؟ ان الخدم اناس يعيشون لكي يهولوا في تصوير قسوة رؤسائهم . اما ان يزعج المدير في تلك الساعة وهو على مائدة الطعام مع أسرته في الجانب الآخر من جناح المعهد ، فهذا يبدو لها مستحيلا . ومضت ايريني في عزفها متبعة النغم بالغناء بصوت منخفض .

لماذا جاء ؟ رجل قميء ينهض يوما عن المائدة ، ويجتاز دهليزا طويلا في الظلام ، ويفتح أحد الابواب مصمما . وها هو يتناول يدها ويقول : « اذن صحيح، لماذا تبقين هنا ؟ فيحمر وجه ايريني ، وتنظر عيناها الى الارض ، بينما يصرخ سنونو في ساحة المعهد في الخارج ، وهو يطير عاليا في الفضاء . انه يتناول يديها ، ويداعب شعرها : « ماذا تدرسين ؟ آه ! الاكاذيب ... » ويفتح المدير الكتاب ، ويهمس ، ثم يأخذ يدها من جديد ويضغط عليها ، ويقول لها انها جميلة ، وانه قد سمعها منذ مدة تعزف ، وانها دون شك موسيقية بارعة ، واذن ... أنت حساسة وطيبة يا عزيزتي الصغيرة . ايريني اسمك ، أليس كذلك ؟ . ويطبق على كتفيها بذراعه بعصبية ، ويقرب شفتيه من أذنيها . ولكن ما هذه الموسيقى ؟ ان الطيور تتساقط في البركة ، وأجنحتها في الوحل . أجنحة تصعد حتى العيون ، وحتى الآذان ، كأنها الافاعي . وهذا الجسد الضعيف دون هدير أو ضجيج، جسد دون نار سحرية، ودون افتتان ، ولكنه عما قليل سيغدو قويا . وتجلس ايريني الى جانبه. انها تخشى أن ترفع رأسها ، وتخشى أن تسمعه يرميها بسوء السلوك . ولكن لماذا ؟ وتظل صامتة ، وتتلقى قبلة رطبة من شفتين هرمتين ، ثم ضمة مفاجئة وقبلة أخرى ، وترى منديلا ناصعا يبرز من الجاكيت فيمسح به شفتيه وهو ماض في مداعبة خديها، كسيد لها . قبلاته تبعث فيها أسوأ ما عرفته فتاة من اشمئزاز ، وتعبر عن لؤم لم تعرف مثله سائر الازمان . وعندما تعود اليها تانك الشفتان الخشنتان تثور ايريني ، وتنتزع نفسها منه بعنف، وترميه بنظرة شزراء. ولكنه لا يقول لها أكثر من : « استعدي جيدا للكونشرتو » .

وتبكي . وفي المرحاض راحت تتقيأ على تلك القبلات . انها لتمر بيدها على فمها ثم ترفعها وتبكي ، وتروح تعض ثوب الصوف الخشن على ذراعها ، وتغرز فيه أسنانها حتى الجلد . وتنظر الى نفسها في الزجاج بخجل كالحمى. لقد غير البكاء وجهها. وتلمس شفتيها الملوثتين باللعاب العجوز ، فتسري البرودة في جسدها ، وتحس في أسنانها بكل البرد الذي تعانيه النفس الطافحة : الطبيعة ، الطبيعة بما فيها من ثورات متحطمة . انها لاتريد الابتسام ، ولا الكذب ، ولكنها تريد أن تَقتُل .

وتقذف بالكتاب الى الارض ، كتاب بيتهوفن تلقي به على البلاط ، فيظل هناك أمامها بين مفتوح ومغلق.

ــ انك لطيبة النية ، سليمة القلب بشكل مخيف، ولكن لماذا أرى عينيك حمراوين ؟ هل كنت تبكين ؟

ــ كلا ، أحس بألم في حلقي .

ــ كم عمرك يا ايريني ؟

ــ ست عشرة سنة . وأنت ؟

ــ عشرون . وأنا أدرك هذه الامور .

وفكرت ايريني : ولكن كيف يأذن لنفسه بأن يتحدث هكذا ؟ انه ماركو . غريب ...

ــ دعني أتكلم . لاتكن هكذا شريرا . ولكنه يقبلهن جميعا . هل فهمت ؟ كيف يجب أن أقوله لك ؟ هل هذا يسوؤك ؟ انني لك ..

ولكن ماركو غرق في الصمت من جديد .

الكذب ، الكذب دائما . منذ أن بدأت تسأل . أن الاضواء تطفأ الآن في المسرح ، الا بعض الاضواء الحمر ما تزال تشق الظلمة هنا وهناك . والستائر تبدو أشد ظلمة . ولكن ايريني تتابع كلامها :

ــ ولكنني لك مستعدة أن أفعل ما تريد ...

ــ ومن قال لك انني أريد منك شيئا ؟

لقد كان يحلو لها أن تفكر في أن تمنحه شيئا منها، من جسدها ، فذلك ضروري لهذا الفتى القمحي اللون، ذي العينين النبيلتين والشفتين الرقيقتين : ان تنطبع شفتاه على جبينها الحار ، وتحس يداه البضتان حرارة عنقها وخصرها . ولكنه يقول لها :

ــ أتريدين حقا أن أصارحك ؟

ــ أوه ، نعم ، أرجوك !

فقال بصوت كالنحيب : ــ لم أعد أحبك . ان المدير ... الكل يعرفون القصة ...

ــ ماذا ، ماذا يعرفون ؟

وانطفأت الاضواء جميعها .

وراحت ايريني تحاول أن تفكر . لقد بقي لها دنيا من الصور المطفأة ، تبرز منها صور أخر ، والى جانب الموسيقى التي بدأت تسمعها خيل اليها أن ريحا شديدة قد نفذت الى عقلها ، ريحا لا تناسب بينها وبين كيانها ، وهي تجتاحها برمتها . وتذكرت الكلمات العالية المكتوبة على واجهة الكنيسة ، فتنهدت : أوه! كيف تتداخل الامور وتتشابك ! . ولكن لم يكن ذلك صوتها . لقد أصبحت تختلف عن نفسها في هذا التبرير ، أو لعل ذلك كان وسيلة لعدم البوح بشيء ، لكي تتجمع في قواها الخاصة بحثا عن ذلك الامكان الوحيد : « أ أنا بومة ؟ » . وشعرت برغبة مجنونة في أن تدمر كل شيء . وبينما راحت تشد أصابعها في قبضتي يديها كانت تفكر في انها قد انتهت ، وان شيئا قد ضاع ولم يعد ممكنا علاجه . فتركت يديها تسقطان على جانبيها وهي تنتحب . كانا متمددين هناك على مقعدين من مقاعد القاعة الخلفية . وكان غريبا أن لاتمتد يد لتبحث عن يدها : لا يد ماركو ولا سواها . « انني لا أعرف من أنا ، ولم يقل لي أحد قط من أنا . أود أن أعرف نفسي هناك ، في الآخرين . ولكنها لعبة . يا لها من لعبة مريعة في كلام الآخرين ! أود أن أعرف نفسي معرفة خيّرة في كلام الآخرين ، ولكنني لا أجد من يعينني ! » . كان خداها مبتلين بالدموع ، وخيل اليها أن المسرح يقرقع في الفراغ ، والرياح تعصف وتصفع بالمطر دفّات الابواب والنوافذ كما كانت تفعل في أيام الحرب . وحين كانت الريح تزيح الستائر كانت تكشف عن اشكال غيلان مختبئة خلفها فاغرة أشداقها، مبرزة أنيابها الملطخة بالدم . وعلى البعد يبدو أن انسانا يصيح مشيرا الى أن الحياة ثقيلة الرياح على من يحلم ببلاده تحت السيوف . وتنظر ايريني الى نفسها: لم تكن امرأة بل طفلة ، ولم يكن في وسعها أن تجعل الآخرين يفهمونها ، لان طبيعتها مصنوعة هكذا ، من كل تلك الاماكن المقدسة التي لايتخلى عنها الاطفال ولو كلفهم ذلك أن يسفحوا الدموع .

انني أعلم أن علي أن أبحث عن يد ماركو أو غيره ، وأحطم السحر ، وأدع قلبي يعود حارا ، ربما بتقبيل يده . ولكن هناك كثيرا من المحيرات المجهولة خلف الجبل ، وكثيرا من الحقائق المجهولة خلف الالفاظ ، وليس سوى الاطفال ، أو المجانين ، أو الذين بهم مس من شيطان ، من يهيمون في البحث في تلك المسالك الضيقة . المجانين وحدهم يستطيعون أن لايبالوا بالوحدة تحبسهم في حلقة جليدية من الرفض والتخلي عن الاشياء . اولئك المحكومون وحدهم هم الذين لاينتمون في الحياة الا الى أنفسهم . وشيء قليل من الغرور يرتكبه الانسان يكفي لكي يعيش بعده للندم، والقنوط : القنوط المغلوب ..

رباعيات حديثة

شعر : شوقي بغدادي

يقظة الميت

كانت موصدةً ، ودخلت — قولي ، من أين تسلّلتِ
كانت خاليةً إلاَّ مِنْ — رجلٍ منسيٍّ في الصمتِ
أشعلتِ النور فأفزعه — رجعان الضوءِ إلى البيتِ
فضحكت له ، فتنبّه مِنْ — خَدَرٍ واستيقظ من موتِ

خيبةُ أمل

لا تدخلي ، أشجار مزرعتي — معروقةُ لوجنات محترقه
لا ظِلٌّ في أرضي ، ولا ثمرٌ — فوق الغصون وليس من ورقه
سترين فأساً مهملاً صدئاً — وحديقةً سوداء مختنقه
وترين أنَّ الموجةَ انحسرت — واستسلم الاعصار للشفقه

الإله الدامي

أمسكتُ الإزميل وصمّمتُ — ولكنَّ الحجرَ تأبّى
لكنّني حين شددتُ عليه — بأظفاري لانَ ولبّى
جرّحتُ الكفَّ سوى أنّي — أُشعرتُ بها ألماً عذْباً
باركتُ بداميتين الخَلْقَ — وصرتُ بلونهما ربّا

النسيان

أبصرتُها يابسةً هشّةً — ما بين أوراقي فلم أذكرِ
من يا ترى قد دسَّها مرةً — يحلم أن يعيش في دفتري
أمسكتُ بالوردةِ مستحضراً — فعزّتِ الذكرى ولم تحضرِ
ما أظلم النسيان لا يرحم الـ — ماضي ، ولا يُبقي على منظرِ

رؤيا عمياء

شعر : سهيل عجي

نحن عميـان ، أضعنا دربنا ،
والى زنزانة العمر ، انتهينـا ،
قادنا نجم ، من الشرق ، ولكن ،
ما اهتدينـا !..
غرقت في أبحر الرمـل خطانـا ،
فارتمينـا
آه .. يازنزانة الرعب التي فيها انتهينا
ريح حمى .. عفن ... أصداء أصوات رهيبه !
ورؤى شوهاء .. احلام جديبه
يا جدار النفي .. يا وجه التماسيح المخيفه
يا فم الموت الذي يأكل منا ،
منذ أجيال سحيقه !
يا جدار الليل ، آه الموت ، قد شلت عروقي
لـم أعد أشعر فيها !..
ضعت عن نفسي ، وعن كل الوجود
أين قبري ؟!
أترى سجني انتهى ؟
أم ترى قد صار بعضا من وجودي

آه ! حمى الموت تجتاح عروقي !
لم أعد أشعر الا بالدوار !!
غـير أني ،
وأنا أعمى ، أرى مالا يرى !
عفن الضوء ، الذي ما عاد ضوءا
شبح الحقد ، الذي يغتالنا شيئا فشيئا
وأرى ماذا أرى ؟
ألف حاو يرقص اليوم المغاره
وأرى التاريخ يروي ،
قصة العار ، الذي صار حضاره
غير أني ،
وأنا أعمى ، أرى ما لايرى !
ألق الفجر الذي يهدر في قلب الظلام
حاملا للناس ، أنوار السلام
وأرى شعبي قد أبصر دربه
وأرى راياتك البيضاء ، ياعيد المحبة !

سهيل عجي

مركز الاستراحة التابع للمنطقة العالمية للصحفيين

قبل خمس سنوات ، ظهرت على الطريق المعبد الذي يصل مركز الاستجمام « دروجبا » بمركز الاستجمام «زلاتني بياسيتزي» أو « الرمال الذهبية » لائحة تشير الى محطةوقوف للباصات التابعة للصحفيين، وقد لفتت هذه اللائحة انظار المارين يومئذ ، وخاصة انها ظهرت مباشرة بعد تدشين المركز الدولي الاول لاستراحة الصحفيين .

وقد انبثقت فكرة انشاء مثل هذا المركز في صوفيا عام ١٩٥٥ أثناء انعقاد المجلس التنفيذي لمنظمة الصحفيين الدولية ، وقد اعتنق هذه الفكرة عدد كبير من الاشخاص الذين أخذوا يعملون بجهد حتى استطاعوا تحقيقها ، وذلك بقرار خاص صدر بانشاء محطة استراحة واستجمام خاصة بالصحفيين على شاطىء البحر الاسود .

وهناك اسطورة بلغارية قديمة تقول انه كي يكون البناء الحديث متينا ، يجب أن تحاط نفس بشرية بسور متين يمنعها من الخروج . وهذا ما حصل فعلا . ففي ٥ تموز عام ١٩٥٨ ، وعند وضع الحجر الاول للمركز الاول للاستجمام الخاص بالصحفيين ، وضعت قنينة داخل أربع جدران تحوى قطعة من الورق كتب عليها:

« أقيم هذا البناء تحقيقا لرغبة المؤتمر الرابع للمنظمة الدولية للصحفيين الذي عقد في شهر ايار عام ١٩٥٨ في بخارست عاصمة جمهورية رومانيا الشعبية . ان هذا المركز هو بيت جميع صحفي العالم الذين يناضلون من أجل العدالة والسلام » .

ان حلم الصحفيين بأن يحصلوا على مركز دولي للراحة نشأ في رسوم المهندس نيكولوف ، الحائز الاول على جائزة ديمتروف الذي بث في أعضاء اللجنة التنفيذية للاعمار التابعة للمنظمة الدولية للصحفيين النخوة والاندفاع لتحقيق هذا الحلم وحاز على تقدير وتشجيع الصحفيين أجمع .

في ربيع ١٩٥٩ ، أخذت تتوافد الى ڤارنا صناديق من كل بقاع العالم تحتوي على كل ما يحتاجه المركز الدولي لراحة الصحفيين من أثاث وتجهيزات وأدوات ترفيه وأدوات رياضية . وقد أرسل صحفيي الاتحاد تجهيزات ثمينة مثل آلة سينمائية لعرض الافلام وبراد وبيانو وسيارات وأجهزة راديو وتجهيزات مطبخية حديثة وأدوات منزلية .. وأرسلت تشيكوسلوفاكيا ١٠ عربات محملة بأدوات زجاجية ورخامية وأثاث . وأرسل صحفيو الجمهورية الديموقراطية الالمانية

أدوات الانارة والتجهيزات الكهربائية ولينوليوم وكل ما يلزم للاتصالات الهاتفية الداخلية والخارجية . وأرسلت رومانيا ٧ عربات محملة بأدوات خشبية مثل الابواب والنوافذ.. وأرسلت هنغاريا أدوات صحية، أما الصين الشعبية فقد أرسلت سجادا وأواني زهرية وأوعية زجاجية جميلة . وأرسلت بولونيا ومنغوليا وكوريا والبانيا والفيتنام والمكسيك والبرازيل أدوات وهدايا ثمينة أدبية وفنية . وكل ذلك يشير الى روح التعاون والمشاركة التي ظهرت في جميع العالم حتى قبل المباشرة ببناء المركز ومنذ اعلان قرارات التنفيذ .

وقام المهندسون والعمال البلغاريون ببناء المركز الابيض في سنة واحدة فقط . فقد دشن هذا المركز في ٢٩ حزيران ١٩٥٩ وقدم ممثلوا نقابة الصحفيين البلغار هدية تذكارية وهي مفتاح الى السيد جان موريس هرمن ممثل منظمة الصحفيين الدولية . وقد استقبل المركز ضيوفه حالما افتتاحه .

وبعد خمس سنوات ، وفي آب من الصيف الماضي احتفل المركز بمرور خمس سنوات على تأسيسه ، وقد حضر أكثر من ٧٠٠٠ صحفي مع عائلاتهم الحفلة وأقاموا أياما جميلة في المركز تبادلوا فيها الآراء ووجهات النظر عن مهنتهم .

وقد جرت بينهم مناقشات كثيرة ومحاضرات قيمة عن شتى المواضيع . كما قاموا بعدة رحلات سياحية للمناطق الاثرية التاريخية . كما أجريت عدة مؤتمرات صحفية ، ومقابلات رياضية ، وحفلات موسيقية كلاسيكية وترفيهية . كل هذا كان له الاثر في تدعيم العلاقات الوثيقة بين مختلف بلاد العالم .

ويحتوي كتاب المركز الذهبي ذكريات جميلة عن هذه الاجتماعات وعبارات كتبها الاعضاء أنفسهم وحمّلوها كل تمنياتهم بازدهار المركز وشكرهم العميق للجمهورية البلغارية .

وهناك مشروع بتوسيع المركز في وقت قريب جدا . وقد قدر بناء فندق من ١٢ طابقا مع شرفة ومقهى صغير . كما تقرر اشادة بناء آخر يحتوي على قاعة للمحاضرات والمؤتمرات الصحفية والحفلات الموسيقية . كما يؤمل بناء حوض مغطى للسباحة ، ومكتبة كبيرة وقاعات للدرس ومخابر للتصوير الخ..

وهكذا يمكن أن يستضيف المركز ٤٠٠ شخص عوضا عن ١٥ كما كان في السابق .

العاصفة

كان يسعى الى لقاء الاهل والليل قاتم الظلمة وقد سكن كل شيء من حوله الا قلبه فقد أخذ يضرب بين أضلعه بعنف ويشعل حريقا في الاعماق • ورفع رأسه الى السماء ليرى فيها نقاطا من النور الكليل منتشرة هنا وهناك • واستغرق يعد النجوم والاعمدة المنتشرةعلى طرفي الشارع • يريد أن يطرد الملل بأي وسيلة •

ثم عاد فكره الى الاهل وابتسم قليلا حين أيقين أنه في الدقائق القليلة القادمة سوف يبلل بالـدموع أيدي الاهل ووجناتهم • وهز رأسه وعادت البسمـة لتعب على شفتيه من جديد وكأنه يهمس :

« الحمد لله »

ورغم ظلمة الليل القاتمة أحس الشمس تشرق في طريقه •• فمضى بخطوات واسعة ثابتة الى لقاء الاهل لا يلوي على شيء •

وتوسل لله أن يقصر مسافات البعد بينـــه وبين البيت •

وأخيرا وصل •••

قرع الباب مرة •• فلم يجبه الا الصمت • وأعاد القرع كرة أخرى فسرى لاذنيه صوت نسائي رخيم :

ـ « من ؟ »

ـ « أنا •• ابنك ظافر »

وهزت الام رأسها بعنف فقد ظنت أنها أخطأت ولكن صوت ابنها طرد كل ريبة :

ـ « افتحي يا أمي »

وشعر الفتى بدوار في رأسه • كأنه غريق يشرف على الموت ، يتخبط في مياه بحر متلاعب الامواج • واختلج قلب « ظافر » اختلاجة يوم ودع الاتراب • وأحس فيض حنو يغمره •

وفتح الباب •••

ولاقى الريح اعصارا •• ضمت الام ابنها ، بينما انكب الآخر على يديها يبللهما بالدموع :

ـ « أهلا •• أهلا » •

ظلت الام تردد هذه العبـارة حتى ذابت علـى شفتيها • وسعيا الى داخل المنزل •• ودق نعلهما أرض المشى فحدث الابن والدته :

ـ « أمي •• لقد نسينا ، فلم نوصد الباب »

ـ « دعه مفتوحا هكذا •• وهل نستطيع دفـع العاصفة الهوجاء ، لطالما يا عزيزي تركت فراشي ووقفت على عتبة الباب أنتظر قدومك • كان يحدوني الامل أنك عائد الي •• الينـا » •

وبسمت الام بسمة عريضة وقالت :

ـ « والآن •• عدت »

وعادت الام فرفعت وجهها الى السماء في تبتـل وخشوع وهمهمت بدعاء قصير •• ثم أمسكت بيـد ابنها واستوقفته ونظرت في وجهه وقالت آسفة :

ـ « كان يجب أن نكون في استقبالك في المينـاء

الجوي •• ولكن كان يجب أن تبرق لنا •• أن تخبرنا بقدومك •• ؟ » •

ولعبت ابتسامة على ثغر « ظافر » وقال :

ـ « أحببت أن أترك الامر مفاجأة •• » •

وعاد صوت نعلهما يدق أرض المنزل من جديد • وصحا كل من في البيت •

وأحس « ظافر » عظيمات صدره تتكسر للقاء الاهل ، وبكى ، وبكى الاهل وكثيرا ما تستسلم دموعنا الى فرحة غامرة •

ومرت زورة من الزمن قصيرة ، تجول الشاب بعدها في أنحاء المنزل فلاقى بصره الاشجار الباسقة الهرمة والشمس على وشك أن تملأ الدنيا بشرا وسعادة ودفئا• وراح ينقل بصره في وجوه الاهل•• يتفقدهم•• وأحس سهما يصل الى غور قلبه فينقطع نياطه •

وتمتم ذاهلا :

ـ « أين هي ؟ » •

وسأله الاهل ماذا يروم فأجاب :

ـ « أريد أن أعود •• أعود الى هناك ، الى البعيد ، ففي البعيد تركت قلبي لقد تسربت الغربة الى نفسي وأنا غريبا عنكم « قلبي ليس هنا » •

ومسحت غلالة حزن وجه الشاب وقيده الالم فانبرى الاب يحدث ابنه :

ـ « ولدي ، عرفناك تركب الحياة بالبشاشة والعبث والدعابة فماذا اتفق لك ؟ • أرى ملامحك تشير الى أنك تحمل الدنيا على كاهلك• ارض بنفسك، فمن الحكمة أن نرضى بأنفسنا ، فما نحن الا نغمة مطربة أو حزينة •• فقاعة صابون نحن لا بد أن تؤول الى الزوال •• نحن زهرة في باقة ليس في ارادتنا أن نوضع على جبين عروس أو على أحجار قبر • لماذا الحزن والحزن قاتل •• ؟ »

وبكى الشاب وردد وهو يدفن وجهه بين راحتيه :

ـ « فاتن •• » فاتن لقد تركتها هناك في البعيد والدمع يغسل مقلتيها ومن ثم خديها • وأنا لم أعهد من المقلتين الا الاشراق والالق الذي أضاء لي طريق الحياة وأنا غريب • والخدين لم أعهد منهما الا الاسالة والبضاضة فآلا الى شحوب •

ان نسيت كل شيء فلن يقدر لي أن أنسى أن كانت لنا فتاة تذوب في حبنا وتقنع منا بأن تترك لها قياد حبنا • ولكننا اعتذرنا وتعالينا ، فرفسنا النعمة وحلت علينا اللعنة •• هكذا دائما كل نفيس يفقد » •

وحدثته الام مستفسرة :

ـ « فاتن ، تلك الفتاة التي حدثتنا عنها في الماضي ••؟ »

ورفع الشاب رأسه وكأنما يحاول أن يقيم ماقوسه الحزن :

ـ « أجل هي ، واغفروا لي ، يجب أن أعود ، فالشمس التي كانت تشرق هناك في البعيد هي غير هذه الشمس • آه •• حتى الشمس التي تركتها هنا قبل رحيلي قد تبدلت » •

وارتمى على مقعد مخملي وأسند جبهته بيديه وعاد يقول :

ـ « لماذا الشمس كالحة هنا وقد تركتها تملأ النفس سعادة وبشرا وحبورا ؟ دعوني أرحل فأرض الله واسعة ، وأراها هنا ضيقة • دعوني فأنا أحس الدنيا تضيق تتقلص أمام ناظري •• »

وخرجت من أعماقه آهة أحس كل من بجانبه أن آهته تحرقه •• تمزقه ، وبدا وجهه مضطربا وجسمه مرتعدا ويداه تذهبان وتجيئان في الهواء ، وأردف يقول والاسى يغسل ملامحه :

ـ « أنا مقرور •• ساقني الى هنا الامل في أن أتدفأ في شمس بلادي •• وأراني أصعق الآن وأنا أرى في شمس بلادي الغيوم • وأشعر في حرارتها رطوبة وبرودة وثلوج •• أزيحوا الرطوبة والبرودة والثلوج لامكث في وطني •• أنا في ظلام ، ظلام قاتل ••

كل ما ترتمي عليه عيناي يظهر لي شبحا •• أنا في ظلام من دنياي لا تشرق علي شمس ولا يبسم الي شعاع ولا يحييني خيط من نور •• لماذا •• لماذا ؟ »

وحدثه أحد اخوانه راجيا :

ــ « امكث هنـــا يا عزيزي ، وقوّم النفس فان ظلام النفس أرهب أنواع الظلام • امكث هنا وعلى الله تدبير الامور ، امكث هنا فارادة الله نافذة • وان كنت تأسف على مافات فان ما فُعلَ فُعل » •

فتلمظ « ظافر » وردد بضع كلمات •

ثم عاد ليثور من جديد :

ــ « القدر •• سوف أحرق أجنحته •• سوف أدفن رماده في أرض غير أرضي •• فأرضي لا تستحق ما نحن فيه •• ما أنا فيه •• وتبا للاقدار كيف تتهكم وتهزأ ، كنت وأنا على متن الريح أموت شوقا الى بلادي ، والآن أتضور شوقا ، أحترق ، من أجـل العودة الى أرض ليست أرضي ، هي عني غريبةولكني أحسن الانطلاق بهـــا ، أحن الى تلك الارض حنين الظامىء الى الورد •• يقتلني الحنين ، لقد تغير كل شيء هنا » •

فأجابت الام ابنها ببراءة :

ــ « نحن لم تتغير أبدا •• أبدا • أنت مخطىء يا ولدي ، هذا هو بيتنا العتيق وهذه هي أرضنا ، وهذه هي شمسنا •• كل شيء هو هو • حتى حياتنا هي حياتنا •• لم تتغير ولم تتبدل » •

ــ « أمي •• حياتنا ، حياتنا هنا سراب ، لا حقيقة للحياة هنا فيهذه الارض•ودعنيأقول كلا الامرين: فاما أن نكون نحن عاقين للارض أو أن تكونالارض عاقة لنا •• »

وتكلم الوالد بعد صمت مديد :

ــ « عمر الارض لم تعق أولادها • وكيف تعق الام أولادها ، كيف يكون ذلك ؟ » •

وتكلم « ظافر » وهو يقلب كفيه في الهواء :

ــ « لست أدري •• والله لست أدري » •

وسادت فترة صمت بدا خلالها كل من في البيت كاسف الفكر ساهما • ونقل « ظافر » نظره في سقف الغرفة بعينين غير مستقرتين كأنهما من زئبق وغمغم :

ــ « لهف نفسي على شمس بلادي كيف تبرد•• »

وعاد أحد اخوته يتحدث :

ــ « دائما نحن نسبغ مشاعرنا على الدنيـــا •• ننظر اليها بمنظارنا الخاص • أهكذا تنقلب الدنيا في نظرك •• امكث قليلا ولله القدرة العليا •• فغـــدا ستدور رحى الجهاد مع الشمس • فلماذا نفسك غائرة النجم ، خافتة الشعاع ، موحشة الجوانب ، عابســة الظلام ؟ ••

دع الشيخوخة وابصق على الفناء وأرسل حرارة الحياة فينضر كل شيء ويسود الربيع » •

وارتسمت على ثغر « ظافر » ابتسامة شاحبة تريد أن ترسم الراحة والحبور فما استطاعت أن ترسم غير الحزن :

ــ « غدا ينضر العود ، ويسود الربيع أيضا •• ؟ ويزهر •• ؟ كم يبدو الغد بعيدا » •

ــ لا •• اعمل من أجل غدك • اعمل فليس هناك في العالم من فكرة الا وتجد من يعتنقهـــا مهما كانت الفكرة بسيطة » •

وأغمض الشاب عينيه ، وظل في مكانه واجما ساهما كأنه قطعة من مرمر على أنه لم يلبث أن فرق بين أجفانه فانهل على وجهه دمع غزير ، ورمقه والـــده بنظرات حزينة بائسة وأراد أن يقول له شيئا ولكن صوتــه أحتبس في حلقه وجرت على خديه دموع غزار •

وساد الصمت مرة ثانيـــة ولكن الابن مالبث أن قـــال :

ــ « دعوني أرحل •• دعوني •• كل شيء هنـــا

كاسف أمامي . واعلموا أني ان عشت في هذه الارض فلن أعيش الا بلا قلب » .

وتأبط « ظافر » حقيبته وخرج الى صحن الدار وما لبث والده أن أوقفه فاستند ظافر الى الحائط وكأنه يخشى على نفسه الانهيار . وعاد ليرد بصره الى أمامه وقدم احدى قدميه وأخر الاخرى يريد أن يمضي وتنازعه نفسه الى البقاء من أجل الام .. والاب .. والاخوة ..

وأرسل فم الام كلمة واحدة خافتة كأنها أعقاب صدى موال :

ــ « ولدي .. حبيبي .. أهكذا نهون عليك ؟ »

وأجال ظافر بصره في الاهل .. في صمت .. فقرأ على الشفاه وفي أغوار العيون ما يقول له :

« أنت مثل ماء في غربال لا يستقر له قرار . لا تحب الفجوات ولا العنت »

وهز « ظافر » رأسه في أسى ومد قدميه في ثبات ومضى ، نعله يدق أرض الدار فجمد الاهل ، فقد تملكهم شعور بأن العقد انفرط من جديد ولم يمض على جمعه لحظات . وترامى في أفق الاهل سؤال مريع :

ــ « هل شوق الابن الى البعيد كفيل بأن يجعله يمضي ؟ » .

ورمق الجميع الشمس بنظرة شزراء ثم تحدث الاب :

ــ « لتندثر هذه الشمس وليسد الظلام ، ولكن ابني لا بد له أن يفتح عينيه على حقيقة غير هذه الحقيقة » .

وفاق الاهل من شرودهم وقد سمعوا صوت الباب يوصد خلف الابن وهرول الجميع وراء الشاب .. في الزقاق الطويل .

وانتشرت على شفاه الجميع فرحة كبرى حين وجدوا الابن يقف مع الرجل الحكيم . هكذا أطلقوا عليه في الحي « الرجل الحكيم » .

فالرجل لا ينطق الا بالحكمة .. فهو شيخ تقي نقي ، تطمئن اليه النفس وتستقر الى جانبه بسلام . لحيته بيضاء مسدلة على صدره ، وشفتاه لا تفتران تحمدان الله وتسبحانه باستمرار .

وترامى الاهل صوت الرجل يحدث ابنهم وهو يربت على كتفه بيده النحيلة :

ــ « يا ولدي عد لاهلك .. فهذا وطنك .. لقد عانينا ما عانيت ، فنحن لسنا الصخر أو الحجر ، لقد مرت علينا ظروف أشبه ما تكون بظروفك .. ولكن ليس معنى الحب أن يدع الانسان وطنه ويأوي غريبا الى وطن آخر .

أمن أجل فتاة يحدث كل هذا ، تتشتت عن الاهل وتترك الوطن .. ؟ أنت تريد أن تخلع سهم الحب الذي ضربتك به فتاتك ليحل محله ألف سهم ؟ .. ان البعد عن الاهل ليس سهلا . ثم الفتيات هنا كثيرات وجميلات ورشيقات » :

وتكلم ظافر وهو على وشك أن يستسلم للرجل :

ــ « ولكن التفاهم ياوالدي ؟ »

ــ « اذا أمعنت النظر في هدوء وروية يمكنك أن تتفاهم مع أي فتاة وسوق تشعر نحوها بما تشعره نحو الفتاة البعيدة . ان كل ما يجب أن تفعله الآن هو أن تتمرس بالصبر . وتدع الشمس تبزغ في أفق حياتك عوض حبا بحب .. واصبر على ما أصابك ان ذلك من عزم الامور » .

بقلم : أحمد سنبل

رداً على قصيدة الأستاذ أحمد علي حسن بوصفه النرجيـلة والتي يقول فيها :

أي حسناء لا امل هواها حبها أنت أم أنا مضناهـا

أعشق الطيب والمعاطر من أنفاسها والجمال من مرآهـا

«الافعى المسحورة»



تذكر الطيب والشذا في هواها فلماذا أخفيت عمداً أذاهـا

هي أفعى مسحورة في زجاج نابها حيث مس منك الشفاها

أي طيب ذاك الذي تملأ الصدر قيحاً وأي سم شذاهـا

تمشق اللثم كيف لا وصباها حيث كان العشاق كان صباها

يرقص الماء في حشاهـا ويعلو وجهها النور حين تلثم فاهـا

أهيف ناحل وردف ثقيل والغلالات زينت أعلاها

ترسل السحر بسمة في لظاها وتغني كيما تصيد فتاهـا

أفقدت مثلك الالوف صباهم كم جهول بها قضى أو تاها

لم أجـد عاقلا سقته لماها غير أن دق عنقها ورماها

مومس كل همها تتملأ رأسها مسكراً دماء خشاها

ليس يحظى بوصلها من أتاها خالي الجيب من شروط لقاها

والمواثيق عندها أي شخص يحمل المهر لفها وطواهـا

معول الهدم والبطالة والفقر وكل الأذي الميت هواها

بنت ابليس فالدمار مناهـا والكسالى يستوطنون حماها

ينطوي المجد واللواء ويبقى خافقاً أينما تحـل لواها

ولعمري غليظة لهيف لاحت تستعيذ البيوت من مرآها

وعجوز برغم كل التصابي يُفسد الريح في حشاها المياها

وهي ثرثارة وأيانا حلت لا حديث وضجت لسواها

ليس فيها من خفة الروح شيء يا صديقي لو لم تكن تهواها

شتاء البحر اليابس

بقلم : وليد اخلاصي

انتشرت بثور الملل ، كأن ريحا نقلتها من مكان لآخر ، فاذ هي تملأ المسطحات ، حتى جسده . نظر من ثقب عينه ، كان المنظر بشعا ، فأغمض . لاشيء ينفع ، القيمة فقدتها الاشياء ، هو يستيقظ قرب الفجر ، يفتقد معنى التمطي ، ينظر الى الدمى والألعاب فيرتد عنها الى نافذته ، لا أحد في الشارع غير القطط ، لايستطيع أن يسوء ، يعود الى عمله ينتج كآلة فقدت زيتها . يخرج مع الشمس الى المدينة ، ينفث الدخان في وجوه الناس ، وفي ظهورهم . يأكل على شاطىء البحر . يبصق في الماء المالح ، ويتشاءم من منظر السمك الميت . في الليل يعاشر سكارى الحانات الضيقة ، يسلونه . هو يبحث طوال اليوم ، لاشيء ينتهي اليه .

ـ من هو الكلب الذي فقد ذنبه ؟

ـ أنا !

ـ من أنت ؟

ـ الكلب الذي فقد ذنبه .

ـ حسنا ، لنبحث الموضوع من جديد .

الملوك تعيش في قصور المرمر البارد ، والمرمر يعيش حول الملوك . ذات مرة نظر عزيز ، كان جسده يتفتح عيونا على ما حوله ، لاشيء يحيط به ، هو الفراغ .

المرآة نفسها تعطي أفضل النتائج ، وعزيز لايتوانى عن كسر المرآة ، وهو يركب واحدة جديدة كل مرة . هو يسكر من كأسه الثاني ، يشرب دوما في صحة شخص غائب ، لايفقد وعيه لكنه يسأل بصورة مستمرة .

ـ أين أنا ! ثم يجيب بعد تفكير : هنا .

ويتذكر أحيانا طفولته ، لم يكن عنيدا ، لم يكن يريد أن يخاصم الاشياء المحيطة به ، ولكنه كان كثيرا ما يسأل نفسه أين أنا : فيجيب : هنا . وهنا تعني

(١) مقطع من رواية تصدر في تشرين الثاني عن دار عويدات للنشر ببيروت .

لا أدري • من يدري !

من أين تبتدىء الطفولة : عادة مـن رحم مطاطي لامرأة متعبة ، ثم بصراخ لاينقطع ، واع •• ويع ، ولا يدخل كتاب القرية في تلك الفترة ، المسؤولية تبتدىء مع القدرة على الطعام دون مساعدة • أين الطفولة : هناك على الرفوف ، يصنعها الرجل ولا يعيشها •

أيها الاطفال كم أحبكم !

هيا لنرفع اليد تحية للعم عزيز •

لا أحد يرفع يده •

يسقطا لعم عزيز !

وقف الرجل أمام أطفـاله ، ما أكثرهم ! العـالم ملكه : الجنود وتلاميـذ المدارس النظيفة ، البنـات القصيرات الثياب وراقصات البرتغـال السمينـات ، عازفو الآلات النحاسية والوترية ، والهنود الحمـر الذين لايبتسمون وصيادو الاسكيمو المتشحمـون ، هذا العالم الكبير ، وهنـاك على الرفـوف الاخرى : الاطفال الرضع وأمهات بقلبين ورجـال من الحقـل عائدون ••

ـ ما أوسعك يا عـالمي • تحية للملك ، يسقط الملك •

لا أحد يحيي عزيز • وقف يتأمل ما صنعت يداه، تبت • لا يستطيع أن يسمي هذا اليوم ، هو زمن ميت يتكدس ، يمهد لفراغ جديد • الناس يقبلون عـلى ألعابه ، وسوزان مطلوبة ، وهو في الكوخ العـالي يبقر وجوده ، لن ينتهي ، هو الملل •

عاد الى الصغار يضحك في وجوههم ، لا أحـد يبتسم ، رضيع فعل ثم سكت •

ـ لنفعل شيئا ، سيرحل عزيز الى عالم جديد •

لا أحد يفعل شيئا• وقف الرجل على نافذته يطل ، لاشيء يثير الاهتمام • هنـا كانت تقف امرأة بعينـين حنونتين ، وهنا الطفلة نامت ، الكوخ مليء بالشعر ، كخيوط عنكبوت هرمة يعشعش في الزوايا •

ـ يجب أن نفعل شيئا •

ـ ماذا نفعل :

ـ لنتخطى عتباتنا المكسورة •

وقف من جديد يواجه الدمى • تصفيق حـاد • الملك يتكلم :

انني عزيز الطفل الوحيد الذي نما بسرعة فيل ، أهبكم الحرية • ليسرح الجنود وليعد التلاميذ الـى المدارس ، لتكبر البنات المرحات ، وتذهب الراقصات الى بلادهن ويبحر الاسكيمو في المياه الدافئة ، ليتراجع كل رضيع الى رحم أمه ، وتفقد الامهات قلوبهـا ، ليهرب الرجال من الحقل ، أنتم أحرار ، وأنا كذلـك• الوداع أيها العالم المتخم بالشعر الهرم • تحية للملك الخائب !

الصمت غيمة مقيمة ، أمطرت ، جرفت عزيز خارج أرضه • بعد قليل كان الشارع يستقبل الرجل باهمال كبير • جأرت سيارة بعنف ، تجمد دم السائق ، أما عزيز فكان ينظر ببلاهة الى فزع السيارة وصاحبها • مـن كان الذي سيموت ؟

خلف عزيز الاشياء المضطربة وراءه ، وواجه ثورة البحر • جلس على السـور الحجري ، ظهـره الى الآخرين ، وجهه يستقبل رذاذا مالحـا يخلله ، عزيز خيارة مكبوسة :

ـ أريد أن اتحرر •

سأله طحلب أخضر ، يلتصق بالسور منذ زمـن

ـ مم تتحرر ؟

نهره الرجل بنظرة كمن يقـول : أيها العبد وما أدراك بالحرية !

بعد قليل صفعت موجة قوية وجه السور ، أخذت الطحلب معها ، فتش عزيز عن الغائب ، لم يجد أحدا •

وليد اخلاصي

مع قصائد العدد الماضي

قصائد العدد الماضي ، كانت حفنة من قصائد تتماوج بين الانطلاق والجمود ، وبين قديم الشعر وحديثه .

فأول قصائد العدد

حكاية الذهب ـ لمحمد حريري :

محمد الحريري . يروي لنا حكاية الذهب، حكاية الراكضين وراء الذهب ، وشاعرنا فيها لم تملأ أبيات قصيدته الكثار ، فراغ القصيدة ، من شعور يحرك الوجدان ومناقشته موضوعية للفكرة ، ولو شبهت الفكرة (بالدينامو الكهربائي) فلا بد من تشبيه الاسلوب بالاسلاك الناقلة ، فأسلاك حكاية الذهب ، لم تأت كما كان متوقعا ، ان تكون ذهبا بل جاءت من معدن آخر . وهذه القصيدة تبلغ اعنف تعابيرها في :

ما قطعة منقوشة مرسومة
أنرى على الاكباد من حد الظبى

وقوله :

عبدته ناطحة السحاب فنكست
هاما وخانته المصارف هيبا
لا الحرب تلو الحرب تردعهم الى
أن قيل « ان السيل قد بلغ الزبى »

في ذكرى الشريف الرضي ـ طه علي أديب

الفاظ وعبارات مكررة ، لو فتشت عن فكرتها الموضوعية ، لما وجدت شيئا جاءت أفضل بقليل من تلك التي القيت في ذكرى الشريف الرضي .

فهذا النوع من الشعر تنقصه ، أحيانا المشاعر الصادقة . والاحاسيس المتدفقة وهو بالتالي يحتاج الى تخل كلي عن التصوير الممسوخ ، والقصص السمج في الاسلوب .

نحن بحاجة قبل كل شيء الى شعر يصور الواقع ، يعالج قضايانا الاجتماعية ، ولا بأس على كل حال أن نفخر بسادة الفكر القديم .

ونلتقي مع عمر ابو قوس في شوقه وعذابه :

حتى عنوان القصيدة (اكل الدهر ...) فبالرغم مما عند عمر من تجربة شعورية لا ننكرها عليه تكاد الفكرة والمعنى والمبنى تكون بلا مجهود جديد . ولا تقترب مطلقا من مرحلة الابداع الفني ، والموضوع بالتالي ليس جديدا ، انماكان ولا يزال ، الدائرة التي يدور حولها شعراؤنا ، فمنذ القديم . كان شعراء الجاهلية قد تطرقوا الى نفس الموضوع ، نفس الوزن والقافية والبحر ...

وهذا واضح جدا في قوله :

فاذا قضيت وليس ذلك عائبي
فالموت منه كل النفوس بمرصد

ويطالعنا أخيرا ، بأزمة يعانيها . ألا وهي أزمة البحث عن حبيب ، وهي معضلة كبيرة :

وضربت في أرض العروبة باحثا
على صاحب حلو الشمائل أمجد

ونترك عمر يبحث عن طيف جديد ، لنلتقي مع ياسين فرجاني .

ما قصيدته سوى تعبير عن أزمة عاطفية ، مرت على ياسين . فراح يكتب لمجرد الكتابة ، فيناجي الطيف والخيال ، وينشد لقاء الحبيب ، ونحن لا نعيب عليه ذلك ، « لان الشعر ما كان قط الا هو والحب دفقتان من منبع واحد » ، وأود أن اهمس في أذن شاعرنا ،

انه لا يكفي لخلق قصيدة أن يمزج شعورنا بشعور كافة الشعراء ، بل الاهم أن نعطي من طاقتنا ، من خلجات نفوسنا •

ولعل ميزة القصيدة اليتيمة ما فيها من موسيقى لطيفة حلوة •

وقصيدة مصرع فراشة •

تعالج معضلة سيكولوجية بحتة « في الرغبة ، والانطلاق ماوراء الرغبة دون حسبان مايحدث في النهاية • فهي مزيج من الرمزية والواقعية ، وهذا لا يعني ان في القصيدة بناء عميقا مركبا ، يتسم بالفكرة الهادفة بل هي خيوط متعددة الالوان من الوصف والتأملات •!!

ومطلع القصيدة لا يوحي بجهد وعطاء ، اذ أن الزهرات التي نقطفها من القصيدة تذبل في أيدينا •

والبلبل العاشق ــ لفريد انطونيوس :

لست ادري كيف استطاعت القصائد الغزلية شن هجومها الكاسح على العدد الماضي ، وليس لهذا النوع من القصائد هدف اجتماعي انما تجربةشعورية، تنحصر ميزتها في رقة العبارة ، وجمال التصوير •

وهذا مانلمحه في الابيات التالية من البلبل العاشق

غدا يا مناي يجيء الخريف
فيجني على روضتي الزاهرة
ويهبط ليل كثيف كثيف
فلا بدر أو انجم ساهرة

وصلاة الى الارض الجديدة ــ لسهيل عجي :

انها في الواقع احسن قصائد العدد قاطبة ، ثورة فكرية جامعة وزخم ثوري هادر •

لولاها وقصيدة أخرى ، لجاءت قصائد العدد ضعيفة جدا ؟؟

وفي هذه القصيدة بالذات ثورة على الانسانية المعاصرة ، على الصراع الذي أفقد العالم الامل • وصرخة معذبة في سبيل الحرية ، ولقد امتزج الجو الفلسفي فيها بالثورية العاطفية خاصة في :

واليأس يملأ اعماقنا
ويستص يمتص اعراقنا

أو في قوله :

واليأس صار جباها
وصار فما وشفاها
وصار إلها •

وقد يعاب التكرار في الشعر ، لكنه لا يعاب عند شاعرنا ، لانه يتجاوب مع الفكرة •

ونصلب في كل يوم
مرارا
ونجلد نجلد في كل يوم
مرارا

ونلتقي مع احمد يونس حمود في الحب والطفولة: قصيده ناجحة بالفعل لما فيها من صدق وعاطفة، تجربة شعورية، ثورة على الافكار القديمة، انما معاناة من الامتزاج بشعر نزار قباني وادونيس سواء فيحكاية الحبيبة ، عيونها ، حكاية الحب الاخضر •

وعيبه أنه أشبع القصيدة بالحسرات والتأوهات ، وأجواء الرحيق المتنوع وهي بعد كل هذا جديدة نسبيا ، ومجهود الشاعر جلي واضح •

أما صاحب قصيدة تألقي ، كنا نريد منه أن يعطينا، ثمرة شعوره الشخصي لا ما يتردد من أفكار ، علىعدد هائل من الشعراء المعاصرين •

فجمال الحسناوات ليست بالفكرة الجديدة ، وليس جديد في هذه القصيدة سوى صيغتها اللفظية• ولا يسعنا سوى ان نرجو له المستقبل الزاهر •

ولقاؤنا الاخير مع رفعة الشيخ ، الذي تاه في غابة الحرمان تخفق رايته وتخفق قصيدته على منوالعاطفي جامد ، لقد اشبع القصيدة بـ (انا) حتى زعزع كيانها ، ربما هناكتجربة أليمة يعانيها الشيخ• وهذا مالا نريده لشيخ مثله ، ولا نريد له أن يقول :

سأغادر الدنيا اذا لم تتركي
دنياي أو لم في الهوى تتورعي

وأخيرا نرجو لشعرائنا هؤلاء التوفيق ، والمستقبل الزاهر ، ولنا الامل الكبير بازدهار أدب أمتنا على أيديهم وايدي امثالهم شعراء الطليعة وشكرا •

صياح ابو لطيف

من اخبار الفن

فن عمره مائتا عام يعرض في اروقة قديمة

كثير من الناس يجهلون الدور العظيم الذي لعبته درسدن – مدينة فن البناء المسمى باروك – في شهرة فلورانس نهر الالب ، ازاء الانتاج الفني الرفيع . وفي نفس الوقت قدمت درسدن الى الزوار نماذج فنيــة وثقافية ايطالية على غاية من الاتقان والشهرة ، وكذلك قدمت كنوز فن البناء واللوحات الفنيــة والموسيقى . وهذه الفنون هي نموذج رائع للفنون المتنوعة القديمــة والتي هي في حوزة جمهورية المانيا الديمقراطية والتي تنال اعجاب كل من يراها .

وسوف يحتفل في هذا العام بمرور مائتي عام على ميلاد المكانة الفنية لمدينة درسدن التي ساعدت سابقــا على تأسيس سمعة الفن في درسدن وكذلك ســاهمت بقسط كبير في احياء الفن وازدهاره في سائر جمهورية المانيا الديمقراطية . وسيقدم دهاقنــة الفن في اوربا ومعاهد فنية كثيرة من جميع العالم اطيب التمنيــات بمناسبة عيد ميلاد المدرسة الفنية العليا للفنون .

ومن مشاهير الفنانين العظماء آنذاك دانيل بوبيلمان باني قصر زفينجر في درسدن الشهير في العالم . وقــد افتتحت هذه الاكاديمية بعد وفاته بقليل ، وكذلك فان فريد زيمبنر الذي لايقل شهرة عن بوبيلمان بنى اوبرا درسدن وبناء معرض اللوحات الزيتية والصور الفنيــة فيها ، وكذلك مسرح الملوك في فيينا والابنيــة الاخرى التي تعتبر آية في الابداع المعماري الالماني في القرن التاسع عشر . ومن مشاهير الفنانين ايضا انتون جراف الرسام اللامع في عصره الذي قدم من سويسرا وتتلمذ على يــد اهم الشخصيات في ذلك العصر كأمثال ايرنست ريتشل وارنست يوليوس وهانيل وادريان ولودفيج ريختر ، وشنور فون كارولزبفيلد ، كل هؤلاء لعبوا دورا هــاما في تطوير الفن في درسدن ، مع أن أكثرهم كان يقوم بالجهود لربط تاريخ اللوحة بتاريخ الملكية .

وحين يسمى الرجل العظيم ومعلم الفن اوتوديكس سيناتور الشرف للمدرسة العليا الجديــدة للفنون في درسدن بعد عودته من المهجر في المانيا الغربية فان هذا لا يعني اصلاح ما حل به من ظلم فحسب انما هو تقدير للفكر الجديد الذي يعيش في هذه الاكاديمية العليا .

وتم انتخاب عميد جديد لهذه الاكاديميــة وهو البروفسور رودولف برغندر حامل الجائزة الوطنية في جمهورية المانيا الديمقراطية والذي حدثنا عن تــاريخ الاكاديمية واعمالها ووضعها الحاضر ، ورافقنا العميد وهو يفتخر بحق اثناء جولتنا في الاكاديمية التي درس فيها حتى عام ١٩٣٣ وكان سروره عظيما وكذلك سرور أصدقائه لنوالهم المنح الكبيرة من الدولة عام ١٩٦٤ التي خصصت لطلبة الفن فكانت حصة الدولة لهم تعــادل ٨٨٪ ، وانشئت مساكن الطلبة المريحة المحاطة بمناظر طبيعية جميلة ، وكان من الطريف اجراء المقارنة بين هذه الحياة الحاضرة وبين الحياة خلال فترة ١٩٠٨–١٩٣٣ ، وكان يوجد آنئذ ١٥٪ فقط من اولاد العمال والفلاحين ، بينما اصبحت النسبة اليوم ٧٠٪ .

ولا تعبر المدرسة التاريخية اليوم في درسدن عــن معان كثيرة لمعارض الفن فحسب بل تبرز زينة قشيبة للمدينة التي اعيد بناؤها ، بجانب اعادة بنــاء المناطق السكنية الرئيسية في برلين وروستوك ولايبزيغ ومدينة ايزنهوتن وهايرز فيردا ، واخيرا اعادة بنــاء منتصف مدينة درسدن . واستحق اصحاب الاوسمة والجوائز الممنوحة بمناسبة مرور مائتي عام على تأسيس هــذه الاكاديمية عربونا على جهودهم العظيمة في مضمار الفن ، فمن الاساتذة الذين حصلوا على اربع جوائز وطنية للدولة اثنان حصلا للمرة الثانية على هذه الاوسمة الرفيعــة .

ويوجد خمسة اشخاص يحملون وسام الوطن الام واثنان يحملان جائزة الفن في جمهورية المانيا الديمقراطيــة ، ولقد نال اربعة اعضاء من هذه الاكاديمية جائزة الفــن من النقابة وآخرون حصلوا على جوائز متنوعة من الدولة تقديرا لاعمالهم وجهودهم الفنية .